

روايات د. نجيب الكيلاني

من روائع الأدب الإسلامي

مجموعات قصصية

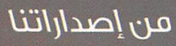
دموع الأمير

عبد الرحمن

Prince's Tears

Dr. Naguib Al Keilany

روايات د. نجيب الكيلاني









الصحوة
ALSAHOH
دار الصحوة للنشر والتوزيع
5 عطفة فريد من شارع مجلس الشعب
السيدة زينب - القاهرة
تليفون 0020223937718
تليفاكس 0020223937767
بريد إلكتروني
daralsahoh@gmail.com

Design by Abdul Rahman Magdy

دموع الأمير..!!

وقصص أخرى

الفائـــزة بجـائـــزة القصـــص
الإسلامية والتاريخية القصيرة



دكتور نجيب الكيلانى

الطبعة الأولى للناشر

١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م

رقم الإيداع: ٢٠١٢/١٩١٣٤

الترقيم الدولي:

978-977-255-359-4



للنشر والتوزيع
٥ عطفة فريد - من شارع مجلس
الشعب - السيدة زينب
تليفون: ٠٠٢٠٢٢٣٩٣٧٧١٨
تليفاكس: ٠٠٢٠٢٢٣٩٣٧٧٦٧
daralsahoh@gmail.com

مقدمة

كنت لم أزل طفلاً صغيرًا. . وكانت قريتنا الوادعة، النائمة وسط المزارع الخضراء، يغمرها جو صوفى مشرق، يوحى بالشوق والحنين والحب. . فإذا ما أهلت إحدى المناسبات الدينية، أو جاء موسم الاحتفال بالأولياء الذين تقام لهم الأضرحة فى قريتنا، سادت القرية موجة من الروحانية الشفافة، وعم الفرح والسرور كل مكان، وجلجلت فى سماء القرية التهليلات والتكبيرات، وملأت موائد الطعام كل مكان، حتى تشبع الأرواح والبطون، وتكتمل صورة السعادة الكاملة.

وكان مولد النبى ﷺ هو أضخم هذه المناسبات استعدادًا وأهمية، وكان فيه شىء اسمه «الزفة»، يستاءل الجميع عن موعدها، ويترقبون بدأها، إذا يخرج شيخ الطريقة الصوفية، لابسًا تاجًا أخضر، يحيط به كبار القرية وصغارها، ويتقدمه عازفو الناى، وناقرو الرق والطبول، ومختلف طوائف الصوفية، كل

يحتل حيزًا خاصًا، فيهم الشاذلية والليثية والأحمدية والرفاعية والإبراهيمية وغيرهم، وقد وفدوا من القرى المجاورة.

ويدور الموكب المهيب الرائع حول قريتنا دورة واحدة تبدأ من المسجد، وتنتهى إليه.. كان هذا اليوم حقًا يوم عيد.. وكنت أظل طوال اليوم دامع العين من شدة الفرح، وقلبى الصغير تملؤه أحاسيس ندية رقراقة.. وروحى ترفرف فوق الحشد الحاشد، يشدها الشوق والحب إلى الله، ويهدهدها سحر مجهول.. عشق صاف ندى.. وأظل هائمًا منتشيًا حتى تنتهى السهرة، فيداعب النوم أجفانى، ثم تنطبق على الرغم منى، وصورة المصابيح الشديدة الضوء التى تبدد ظلام الليل، تتراقص أمام عينى المجهدتين، وصورة الشيخ هو ينحنى ويستقيم لا تغادر مخيلتى، والتكبيرات والتهليلات وزغاريد النساء، وأغانى المدّاحين تظل تطن فى أذنى حتى يطبق الكرى أجفانى بأنامله الحنونة..

وذات مساء مات الشيخ الكبير قطب هذه الاحتفالات.. وكانت جنازته مهيبة جبارة ما زالوا يتحدثون عن روعتها فى قريتنا حتى اليوم، وحدث بعد ذلك شيء ذو بال.. لقد اختلف أبناء الشيخ على من يتولى الخلافة من بعده فى قريتنا والقرى المجاورة إلى شيع وأحزاب، كل مجموعة تناصر ابنًا من أبناء الشيخ، وتزعم أنه أحق بالخلافة وأنه صاحب كرامات ومؤهلات لاتتهيأ لغيره، ثم

احتدمت المعركة، واستعملت فيها أسلحة رخيصة من دس، وافتراءات، ومؤامرات حتى ثارت الشكوك حول الرجل الطاهر وأولاده السذج، وضاع من الأسرة المتصوفة معنى كبير ظل يحتفظ اسمهم ناصعًا لأجيال، أشياء كثيرة حدثت حتى بلغت درجة الصدام الذى أدى إلى عدد من الجرحى . .

ورأيت قريتى الصغيرة الوادعة تتمتم أسفًا وحسرة . . ورأيت الإشراقات الصوفية، والنسائم الروحية ذات الجو الساحر تنزوى بعيدًا . . ولما نال «الخلافة» واحد من أبناء الشيخ لم أجد حماسة أو اهتمامًا يذكر . . .

ورأيت عدد رواد الجلسات الصوفية، وحفلات الذكر . . يتناقص رويدًا رويدًا . . ورأيت أحلامى الغضة المثاليه تنتهى إلى حقائق مرة . . إن الرجال النظفاء المتصوفين هم الا خرون يخطئون . . هم بشر . . قد تحركهم مطامع، وقد ينسون مثالياتهم ويندفعون وراء الدنيا بغرورها ومظاهرها ومناصبها . .

وكبرت . . وقرأت التاريخ . . وكان التاريخ صورة مكبرة لما حدث فى قريتنا الصغيرة، لكننى أدركت معنى مهمًا هو أننا نربط عقائدنا بالرجال . . فإذا ما أخطأ الرجال اهتزت القيم والمثل فى أعيننا . . هذا هو خطأنا الأكبر . . فلو ارتبطنا بالمعانى وحدها، وبالمبادئ وحدها، لكان رد الفعل وحكمنا على الأشياء غير

ذلك . . وصدق الصحابى الجليل حين قال : «لا تعرف الحق بالرجال، ولكن اعرف الحق تعرف أهله..» .

ليست المشكلة مشكلة دين . . ولكنها مشكلة ما يسمى برجال الدين ويا حبذا لو بقيت عيوننا مفتوحة على المصادر الأولى ، المنابع الصافية التى لم يلوثها هوى الرجال ، أو يحرفها طمعهم . . .

●●●

وهذه المجموعة من القصص القصيرة ، دموع الأمير تشمل اثنى عشر قصة ، ولعلها المجموعة الأولى من نوعها فى قصصنا الحديث ، فقد حاولت جاهدًا أن أحافظ على مفهوم القصة القصيرة الحديثة إلى جانب تضمينها أحداث تاريخية مهمة ، وقد سبق أن قررت أن «الواقع التاريخى» لايقل روعة أو أهمية عن «الواقع الحاضر» ، فكلاهما مادة للقصاص يستطيع أن يضمنها ما يراه ، وقد تناولت هذه المجموعة أحداثًا تاريخية مهمة ، وشخصيات إسلامية لها مكانتها وفاعليتها ، رأينا أن نتناول من هذه الأحداث أو الشخصيات لمحة معبرة ، أو زاوية خاصة حسب ما تقتضيه أصول فن القصة ، ولست أنكر أن قليلاً من السرد قد يضطر إليه الكاتب اضطرارًا فى مواضع يسيرة يقتضيها الحدث وظروفه ، وكان من الطبيعى ألا ننسى البعد الداخلى للشخصيات وتصوير انفعالاتها

النفسية، وثورتها الباطنة ومدى استجابتها لطبيعة الإنسان ومجريات الحوادث والظروف التاريخية . .

أما موقف شخصيات القصص وأبطالها من المجتمع الذى يضمهم، ومن المبادئ والأفكار التى تأثروا بها فقد كان موقفًا شعبيًا- جماهيريًا- يرتبط بقضايا المجتمع ومشاكله، وقضايا الضمير الإنسانى عامة، ولقد أعطى الطابع الإنسانى العام وارتباطه بنفس الإنسان وذاته أعطاها سمة الشمول والعموم التى لا تقف عند حقبة معينة، وإنما تمتد فى سعة ورحابة امتداد الزمان . . .

قد أقرر أن هذه المجموعة المميزة أول مجموعة من نوعها يضمها كتاب، لكنى لا أستطيع أن أجزم أنها قد بلغت غاية الكمال الفنى .

●●●

وإذا كان لا بد أن أهدى هذه المجموعة القصصية- دموع الأمير- لأحد، فلأهدها إلى هؤلاء الشباب المؤمنين، المكافحين ن أجل حرية أمتهم، والمكافحين فى سبيل دينهم . . أولئك الشباب الذين تتوالى على رسائلهم من العراق . . والكويت . . وليبيا . . والمغرب العربى . . والمملكة العربية السعودية . . والبحرين . . وجمهوريتنا العربية المتحدة وغيرها فى العالم الإسلامى والعربى، إن رسائلهم الغالية قد ملأت نفسى ثقة ورضى، وجعلتنى أطمئن على مستقبل هذه الأمة الخالدة، وذلك الدين الذى لا يأتيه الباطل

من بين يديه ولا من خلفه . . ﴿ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى . . ﴾ [الكهف : ١٣] .

فإليهم أهدى هذه الصفحات المتواضعة . . وإلى اللقاء .

نجيب الكيلانى

القاهرة فى يناير ١٩٦٢ .

●●●



دموع الأمير

[١]

لم ينم هشام بن إسماعيل المخزومى فى تلك الليلة . .

القصر الذى يعيش فيه قصر فخم، تضوع فى جنباته الروائح الشذية، وحجراته مفروشة بالأثاث الجميل الذى يتناسب مع عظمة والى «المدينة» وأميرها الذائع الصيت، والخدم والعبيد تحت أمره، وتكفى كلمة واحدة منه، ليتحرك رهط كبير ليلبى طلب الأمير.

كانت الفرش الحريرية تحت جنبه تبدو وكأنها أشواك حادة تنغرز فى جسده، والمصابيح الزيتية التى تضىء الحجرة بدت هى الأخرى وكأنها عيون فضولية تختلس إليه النظر، وتتسلل إلى حنايا نفسه، وخبايا ضميره.

ووثب هشام من فوق سريره، وقد ظهر الاحتقان فى عينيه وبان الشحوب على وجهه، وأخذ يطفئ الشموع والمصابيح، كل واحد بنفخة واحدة أودعها كل ما فى قلبه من قلق. . وحنق. . وندم، وحينما ساد الحجرة الظلام، ولفها السكون، أحس هشام بقليل من

الراحة يتسرب إلى داخل نفسه، وغمغم فى صوت لا يكاد يسمع:
«ما أروع الظلام! إنه شيء متجانس.. غامض.. لا تصطدم العين فيه بشيء.. لا مصابيح مرتعشة، ولا ظلال متراقصة على الحيطان، ولا ستائر ملونة، لا شيء.. لا شيء أراه سوى السواد المتجانس الممتد الذى ترتاح إليه نفسى.. أما النور فأنا أحس أنه يعرينى جسدًا وروحًا».

وتململت زوجته إلى جواره، وقالت والنوم يغالب إرادتها، ويخرج كلماتها متقطعة متداخلة:

- ماذا تفعل يا هشام؟

فقال محتدًا:

- لا شيء. لا شيء. نامى. يجب أن تنامى.

فقالت وقد أطارت حدته النوم من عينيها:

- إنك تطفئ النور، وهذا يضايقنى، أحس فى الظلام بأنفاسى تحتبس.

عندئذ قاطعها قائلاً:

- تستطعين أن تذهبى إلى أية حجرة أخرى إن لم يعجبك جو حجرتنا.

ودهشت الزوجة للهجته الجديدة الشاذة، وقالت لنفسها: «لا بد وأنه مرهق، فهو طول اليوم فى عمل مستمر، ينظر فى القضايا، ويضرب على أيدى الخارجين على القانون، والأدهى من ذلك الخصوم السياسيون لبنى أمية، وخاصة أهل البيت، إنهم دائمًا مصدر متاعب منذ أن استشهد الحسين بن على بسيوف اليزيد. . آه. . لست أدرى ما الذى أتى بنا إلى هنا. . أرض المتاعب والثورة والانقضاض على حكم بنى أمية، ليت الخليفة قد ولى هشام فى مكان آخر غير المدينة. . لكن ماذا يجدى القول؟ لقد انتهى الأمر وولى هشام أمر المدينة، وها هو قد مر عليه هنا وقت طويل فى صراع مخيف حتى مات الخليفة منذ أيام قليلة، وتولى الخلافة بعده ابنه الوليد بن عبد الملك، وليس من المنتظر أن يحدث أدنى تغيير، أى أننا سوف نبقى هنا. حيث المتاعب، والآلام، والانقضاضات السياسية، وحيث يتصدى لنا على زين العابدين بن الشهيد الحسين ذلك الذى يستمتع بسلطان أكبر بكثير من سلطان زوجى. . والذى يتعرض لشتى صنوف القسوة والإيذاء من هشام من دون أن يتحول عن رأيه فى بنى أمية أو يخفف من عدائه لهم، إن زين العابدين رغم صلاحه وتقواه أساس المتاعب».

وتوقفت الزوجة عن الاستطراد فى التفكير حين قال زوجها هشام:

- «هيه ماذا قلت؟ أتبقين فى الظلام؟» .

- «مادمت تحب الظلام يا هشام فأنا أحبه مثلك» .

- «كما تشاءين» .

وسكت . .

حاولت أن تجره إلى المرح ، وتصرفه عن الانحراف الذى أصاب روحه المرحة ، لكنه لم يستجب لمداعباتها وهذرها ، وتسللت يدها تعبث بشعر رأسه ولحيته ، لكنه دفعها عنه فى رفق متعللاً بأنه يريد أن ينام ، لأن رأسه نهب للصداع ، وجسده منهك والنوم عزيز المنال ، وليس به شوق إلى شىء ، فقالت الزوجة وهى تبتعد عنه فى خجل :

- «يبدو أنك ما زالت متألمًا لموت الخليفة . . » .

- «ليمت الخليفة أو يحيى فالأمر بالنسبة لى سيان ، إننا لا نفكر فى الخلافة إلا بالقدر الذى يهمنا بالمنافع والمشاكل التى تربطنا بها ، وخاصة فى هذه الأيام العصيبة ، أنا لا أفكر فى الخلافة إلا من خلال عملى كوال للمدينة ، من خلال وضعى الشائك ، ماضىّ الملىء بالحوادث والصراع الدامى» .

ولم تفهم تمامًا ماذا يقصد زوجها ، كانت كلماته غريبة تنبعث منها رائحة اليأس والخوف ، وتحمل فى ثناياها بوادر الإشفاق من

المستقبل، وما يطويه من أسرار ومفاجآت، لكن زوجته بالرغم من الحيرة والقلق، آثرت أن تصمت وتدارى قلقها، كى تتيح الفرصة لزوجها كى ينام، ولصداع رأسه كى تخف حدثت.

ونام هشام مستلقيًا على ظهره، وبقيت عيناه مفتوحتين ومصوبتين إلى لا شيء عبر الظلام المتراكم الممتد، وجبينه ينضح بالعرق، وأنفاسه تتلاحق فى حشرجة مسموعة.. لم يسكب الظلام هدوءًا على نفسه كما توهم، ولم يزرع فى قلبه السكينة والأمن بل أخذ يتراكم ويطبق على صدره، ويوشك أن يكتم أنفاسه، حتى خيل إليه أنه فى شبه غيبوبة.

ومن خلال قلقه الرهيب.. ورأسه المصدع وأفكاره المضنية المتلاحقة- بدت له أشباح الماضى التى يجسمها الظلام، ويزيدها بشاعة ورهبة.. آه.. ذلك الأعرابى الذى جاء إليه وقال له: يا هشام يا ابن إسماعيل المخزومى أنت ظالم.. لم يحاول أن يسأله عن سر تهجمه عليه.. بل أصدر أمره فورًا بأن يجلد بالسياط، وتلك المرأة التى اعترضته فى المسجد ذات يوم، ولم يكن يبدو من وراء لثامها غير عينين تطلقان شرر الثورة.. صاحت فى وجهه قائلة: يا هشام يا ابن إسماعيل المخزومى. أنت ظالم.. فعاملها فى قسوة وحقد.. وذلك المولى من موالى أهل البيت حين صادفه فى الطريق، واندفع إليه وكله غيظ وحنق، وصرخ فى وجهه:

أتؤذى أهل البيت . . أهل الرسول وعلى مقربة منك قبره؟! يا هشام يا ابن إسماعيل المخزومى أنت ظالم . . ظالم . . ظالم، ولن ينفعك بنو أمية يوم تقف أمام الله . . وهناك أيضًا على زين العابدين . . لكم تعرض له هشام بالإيذاء، واعترض طريقه، وهاجمه فى عنف بالغ، لاهوادة فيه . . حتى ضج الناس بالشكوى واستجاروا ولا مجير . . ودماء سالت باسم أمن الخلافة وباسم هدوء بال الناس . . وأولئك الذين رسفوا فى الأغلال، باسم الدين . . وباسم الخلافة .

وجوه كثيرة كانت تتلاحق فى الظلام، كلها حقد مغلوب، وعيون كثيرة كانت تبرق فى الظلام، كلها صيحات وصرخات .

وينابيع حمراء تتفجر بالدماء البريئة والآثمة . . وخطب نارية متوعدة من فوق المنبر . . تمامًا مثلما يفعل الحجاج فى العراق . . الظلام ملىء بشتى الصور والأشباح والضحايا . .

●●●

ووثب هشام من فوق سريره مرة أخرى مذعورًا .

لم يتمالك نفسه، أو يضبط أعصابه المتوترة، فانكفأ على وجهه، واصطدمت جبهته بصيوان كبير على ميمنة السرير، فشجت رأسه، وسال دمه على وجهه ساخنًا . .

وصرخت زوجته مرتاعة . .

- «ماذا جرى لك يا هشام؟» .

- «لا شيء . . » .

وأسرع بعض الخدم صوب الباب حينما تناهت إلى أسماعهم أصوات الضجيج ، وصرخات السيدة زوجة الأمير ، وصاح هشام بصوت أجش ، حاول أن يكون صارمًا لا أثر للخوف أو الارتعاش فيه :

- «أضيئوا الأنوار . . » .

وفى دقائق قليلة كانت الغرفة هادئة ساكنة ، يغمرها الضوء ، وهشام مضطجع على سريره معصوب الرأس ، وقطرات من الدم الأحمر تترك أثرها على الضمادة البيضاء ، وزوجته تجلس إلى جواره تكتم إزعاجها ووجلها ، وبالرغم من ذلك لم تستطع أن تخفى الحيرة والقلق المرتسمين فى نظراتها الخائفة ، وتعبيرات وجهها الذى ساده الشحوب .

وبعد فترة صمت طويلة قالت والخوف يعقد لسانها :

- «إنك تخفى عنى شيئًا يا هشام» .

- «هذا حق» .

- «أتسخر منى يا زوجى الحبيب؟» .

- «لا أسخر، ولكنها الحقيقة المرة يا زوجتى».

- «ماذا تعنى ؟».

فأجابها بصوت تعروه بحة تعسة :

- «جاءنى صديق قديم من دمشق اليوم خفية ودون أن يشعر به أحد، وحمل إلى أنباء أزعجتنى».

- «خير إن شاء الله يا هشام».

- «لم أشم فيما قال خيرًا، بل ضياعًا وحسرة . .».

- «أفصح فقد آلمتنى . .».

-فأردف مطأطئ الرأس حزينًا :

- «هناك نية لعزلى من الولاية».

فقالت مقاطعة :

- «وتوليتك فى مكان آخر؟».

لكنه قال يائسًا :

- «كلا . . إن الخليفة الجديد- الوليد بن عبد الملك- سوف يعزلنى نهائيًا، ولن يولينى فى مكان آخر، يبدو أنه سوف يغير السياسية التى درج عليها أبوه نحو أهل البيت ونحو على زين العابدين بن الحسين بالذات . .».

وأطرقت زوجته صامتة، بينما استطرد فى حديثه :

- «بعد أن كنا كل شىء . . فقدنا كل شىء . . » .

ثم أجهش بالبكاء . .

وأجهشت معه زوجته هى الأخرى بالبكاء . .

وقالت وهى تحاول أن تتماسك :

- «لا أريدك أن تبكى يا هشام» .

- «صدقت . . عار أن ترى المرأة دموع زوجها» .

واستأنفت حديثها :

- «وكيف ينسى لك بنو أمية معونتك لهم؟؟ لقد كنت سيفًا يحمى سلطانهم، ويسوق الناس إلى طاعتهم، ويقضى على كل ثورة تنطلق ضد حكمهم . . » .

فقال وهو يجفف دموعه :

- «هذا صحيح . . لكن الذى يحزننى هو أنى كنت أداة غاشمة فى يدهم . . أسلك أى سبيل . . بل أبشع السبل للقضاء على مناوئيهم، وأجتلب سخط الناس لرضاهم، لقد أخذونى لحمًا وعظمًا وتركونى عظمًا، خسرتهم وخسرت الناس . . لم أنل شيئًا غير سخط الخالق والخليقة . لو كنت عادلاً شفوقًا بالناس لخسرت

فقط بنى أمية، وبقى لى الرصيد الكبير . . الرصيد الذى لا ينفذ رضى الله ورضى الناس، كنت بالأمس حذاء فى قدم الخليفة القديم، يدوس به أعناق المعارضين والثائرين، أما اليوم فما أنا إلا حذاء قديم مرقع، يرمى به فى الخرائب».

فانتصبت زوجته واقفة، وقالت محتدة:

- «لا تقل هذا الكلام، إنك أكبر من ذلك بكثير، والحكم والحكام فى كفة القدر، بالأمس خليفة، وغداً خليفة جديد. . لا أحد يدرى ما تأتى به المقادير».

فغمغم بصوت جريح:

- «أجل. . لا أحد يدرى ما تأتى به المقادير . .».

وتناهى إلى أسماعهما من بعيد صوت المؤذن يدعو إلى صلاة الفجر: «الله أكبر . . الله أكبر . .»، وكان الصوت نديًا أخاذًا، فيه روعة الحب، وفيض التقوى، وأريج الإيمان ونغمة خاصة تصل إلى القلب مع الأذن، تذكر الإنسان بأشياء كثيرة مختلفة غامضة لكن . . فى غموضها شوقًا لذيذًا عجيبًا. . أشياء مثل الحياة والموت والقبر والنعيم والضراعة. . أشياء كثيرة. . كثيرة جدًا، لها نكهة خاصة، يدركها أكثر ما يدركها المحزونون والخطاة والذين يوشكون أن يودعوا الحياة . .

وارتخت جفون هشام بالرغم منه، ودارت رأسه، وخيل إليه أن الحجرة تدور معه، وأن الشموع والمصابيح المضاءة هى الأخرى تميل وتنحنى ثم تستقيم من جديد، وتداخلت الأشياء، ثم لم يعد يرى شيئًا . .

وأغفى ساعة أو بعض ساعة، وحينما فتح عينيه همس فى إشفاق :

- «خير إن شاء الله، لقد رأيت فى منامى رؤيا عجيبة، يبدو إن الأمر ليس بسيطًا . . ولكن هناك أشياء أخرى . . ».

●●●

[٢]

وتنهد هشام فى أسى، كانت تنهداته تطفح بمزيد من الحزن والخوف، وشعر أنه أصبح شيئًا آخر غير ما يراه الناس، إنه فى ثوب أمير عالى الشأن، وحوله كل مظاهر المجد والعظمة، لكن حقيقته كانت تخالف ذلك تمام المخالفة، إنه أمام نفسه إنسان صغير.. ضئيل.. مرتجف.. حياته مرتبطة بخيط واه ضعيف.. خيط الإمارة، وعندما ينقطع هذا الخيط، فسوف يهوى من حالق، ويرتطم جسده الثقيل بالأرض الصلبة، فتصرعه أو تهشم عظامه، وتتركه إنسانًا محطمًا تعسًا العطف، ويجلب الرثاء.

وقالت زوجته:

- «فيم تنهدك يا هشام؟».

فقال يائسًا:

- «ألا تعلمين؟».

- «أعلم أن الأمر بيد الله لا بيد الخليفة . . » .

- «كلنا يعلم ذلك ، وليس هذا بمانع من الخوف يا عزيزتى» .

- «هذا ضعف الإيمان يا هشام . . » .

- «بل تستطيعين أن تقولى أنى أخطأت فى حق البشر ويجب أن أخاف الخليفة ، وأخاف الله . والإيمان فى هذه الظروف هو إيمان الذى يوقن بالشر يأتيه ، ويظل على نار الانتظار ، ولهذا تعذبنى الذكريات ، وتدور برأسى الهواجس ، والحقيقة يا زوجتى أن خوفى قد تضاعف بصورة بشعة لا لخبر أتانى ، بل بسبب رؤيا رأيتها هذه الساعة وأنا نائم . . أتدرين ما هذه الرؤيا؟؟ إنها مخيفة . . جدًا ، لو خضت معركة ، وتعرضت للموت لما كان إشقائى يضارع حالتى وأنا أفيق من نومى . . » .

فقالت زوجته وقد فاض بها الضيق ، وانتقلت إليها عدوى الخوف :

- «قل ما رأيت يا هشام . . قل حتى تخفف عن نفسك بعض ما أصابها من قلق واضطراب ، ومن يدرى؟ قد تكون هطه الرؤيا فاتحة خير ، وقد أستطيع أن أفسرها لك تفسيرًا مريحًا . . » .

- «لا أظن ذلك إنها فى غاية الوضوح . . » .

- «ويحك يا هشام إنك تعذنى ، وأنا أحاول جاهدة أن أصرفك

عن هذا التفكير القاتل، ولكنك تتمادى فى تعذيب نفسك. . ماذا أقول أكثر مما قلت يا عزيزى؟؟ أترو لى رؤياك، فالشمس أشرقت وعليك أن تبادر بالذهاب إلى مقر حكمك، ولعل الله يكتب لك الخلاص، ويهبك التوفيق والسداد. . ».

وأحنى هشام رأسه، وأسند خده على قبضة يده اليمنى، ثم غاب للحظات فى تفكير عميق وبعدئذ رفع رأسه متوجهًا ببصره إلى سقف الحجرة شارد النظرات كاسف البال. وعلى وجهه سطور ألم ناطق تثير الإشفاق أكثر مما تثير الشماتة وأخذ هشام يتكلم وزوجته كلها آذان مصغية لما يقول:

- «أجل يا عزيزتى. . رأيت كأننى فى قصر فخم، تحيطه الحجاب والحراس، تتراءى حوله، وفى أبهائه الفاتنة شتى ألوان النعيم والثراء والسلطان، وكنت جالسًا على أريكة عالية أو منبر عال لا أذكر الحقيقة تمامًا. . لكنى واثق كل الثقة أن المنصة التى أقتعِدتها أعمدتها ملوثة بالأوحال ويدى هى الأخرى ملوثة بشىء يشبه الروث، وكلما حاولت تنظيفها عادت كما كانت ولا أدرى كيف كان يحدق ذلك، واستسلمت فى النهاية لهذا الوضع الذى يثير التقزز ويبعث على الضيق، حتى طاب لى المجلس العالى الذى يعلو هامات الرجال الواقفين أمامى، ورضيت بما أنا فيه ولم أعد أجد فيه غضاضة. . شىء مزعج يا زوجتى!! أليس كذلك؟ لكن

فلأكمل حديثى ؛ لأنى أشعر بضيفك ونبرمك من أمرى . . وتلفت حولى يا عزيزتى . . وصفقت بكفى فى عنف ، وأحسست بمراحل الغضب تتفجر في قلبى الثائر الخانق وصحت : «أين العبد الأعجمى؟؟ لأعذبنه عذابًا شديدًا أو لأذبحنه . . يجب أن يأتى فورًا ومعه الشراب الأسود والكأس السوداء» .

ولم أكد أنهى حديثى حتى لمحت العبد الأعجمى مهرولاً حاملاً فى يمينه الكأس السوداء وفى يساره وعاء كبير يمتلئ بسائل أسود والعبد يرتعد وعلى شفتيه ابتسامة مرتجفة . . ابتسامة أعرفها تمامًا عند أولئك العبيد الذين يطيعون الأمر دائمًا ، لكنهم يخالفونه تمام المخالفة بضمائرهم وقلوبهم ، تفحصت ابتسامته المرتجفة ونظراته الكسيرة الخائفة ، ورجعت ببصرى إلى الكأس السوداء والسائل الأسود لكنى طربت كثيرًا حينما لمحت سوطًا معلقًا فى حزام حول وسطه ، فوثبت من فوق الكرسى ، واختطفت السوط وأهويت به فى تشف عجيب ولذة مجنونة على وجه ذلك الأعجمى وجسده .

كان يصر على أسنانه من الألم ، وكانت ملامحه تنقبض وتنبسط مع كل ضربة غير أن الابتسامة المرتجفة بقيت كما هى دون تغير أو تبدل ، ولم أكد أنتهى من عقابى له وأعود إلى المنصة الملطخة بالوحل حتى وجدت ذلك العبد يصعد درجتين ثم ينحنى أمامى فى خشوع وتذلل ، ويقول : مولاى الأمير الكأس

السوداء . . والشراب الأسود . . والسوط . . الثلاثة معك يا مولاى العظيم وابتسامته المرتجفة لم تزل فوق شفتيه تتلوى مثل ثعبان، وأحسست بكره شديد لابتسامته تلك ولخشوعه وتذلله، فصرخت فيه :

- «لا تبتسم واصلب عودك . . ».

وبعد أن فعل ما أمرته به، قرب الوعاء منى، فوجهت إليه نظراتى ثم اختبرته بأصبعى فوجدته سائلاً لزجًا . . غليظ القوام . . نتن الرائحة . . تعافه النفس، ويبعث على التقزز والغيثان . . فزمجرت فيه : «حسن . . حسن . . أغرب عن وجهى وضع الوعاء أولاً والكأس إلى جوارى» .

وحول المنصة تراءى لى خلق كثير، كانت وجوههم متشابهة فى ملامحها وسمرتها . . ونظراتهم جميعًا مصوبة إلىّ، وكأنها سهام ترشقنى، والجفون منتفخة تجحظ منها عيون محترقة بالعذاب، وقد ضرب الجند حولهم ستارًا يمنعهم من الإفلات، ويرغمونهم بالقهر والإرهاب على البقاء فى الساحة الواسعة، ومن بعيد لمحت مئذنة من نور كعمود ضخم ضارب بين السماء والأرض . . فلوى الناس رءوسهم صوب النور المتوهج عند المكان الذى دفن فيه الرسول، وحاولوا أن يندفعوا إليه فى شوق جارف، لكن السياج المنيع الذى أقامه الجند من حولهم قد حد من انطلاقهم، وعاق انفلاتهم، فبقوا

فى أماكنهم تنهمر منهم الدموع ويضقيهم الحرمان، وبانت الثورة والحقد فى عينى رجل قريب من المنصة، وامرأة تقف إلى اليسار، فأمرت الجند فجروهم إلى جرآ، وصيحات المرأة وتوسلاتها تتعالى، وتطغى على ما عداها من الأصوات، وملأت لكأس السوداء من السائل الأسود، وقلت للرجل : «اشرب . . لا بد أن تشرب» ولما تقزز وأتى، وأمسك به الجند وجرعوه الكأس رغم أنفه . . كان يتلوى ويحاول أن يفلت، لكن هيهات ثم دفعته بيدى بعيدًا، وأنا أسوقه بالسوط . . وجنودى يفعلون مثلما أفعل، ثم ثنيت بالمرأة، وفعلت بها ما فعلت بالرجل، وهكذا أخذت أمواج الناس تتدافع نحوى، منهم من يأتى طائعًا دون جهد، ومنهم من يسوقه الجند سوقًا إلى، فأسقيه من الكأس السوداء، وأضربه بالسوط ضرب غرائب الإبل، كان ذلك والمئذنة المضيئة لدى قبر الرسول تزداد إشراقًا وروعة، والناس يزدادون تلهفًا وتحرقًا إليها، والجند يزودنهم عنها كلما أشرت إليهم، ولمحت من بعيد رجلاً يقدم على فى خطوات رزينة فوق رأسه تاج يشع كما تشع المئذنة من بعيد . . واقترب الرجل منى وقد ملأتنى الدهشة، وأنا أره يتبخطر فى شموخ وكبرياء لا تبدو عليه أثارة من خوف أو علامة من إحجام . . الابتسامة التى على ثغره نابضة صافية . . والنظرات التى تنطلق من عينيه وادعة رائقة والناس يرمقونه من كل جانب، ورأيت نظراتهم تفيض بالحنين نحوه . . لم يكن واضحًا لدى من هو،

فرأيتنى أصرخ طالبًا العبد الأعجمى، فيأتى مهرولاً والابتسامة المرتجفة على ثغره من جديد، فقلت للعبد:

- «أيها الوقح.. من هو هذا الرجل؟؟».

- «الجميع يعرفونه يا مولاى».

قلت له وأنا أهوى بالسوط على وجهه:

- «قلت لك من هو أيها الوغد؟».

- «هذا زين العابدين بن الحسين يا سيدى الأمير».

فهتفت مغتاظًا:

- «على به فى الحال.. سوقوه إلىّ دون شفقة.. إنه يناهض بنى أمية، ويعارض سياستهم..».

وملأت الكأس بالشراب اللزج الأسود حتى فاض على يدى منه شيء، فاختلطت الأوحال بالشراب، وتكون منهما خليط منفر، وكان زين العابدين قد أقبل، لم يخالط حركاته ارتباك، أو يبدى على وجهه بادرة من ذعر، ومددت إليه يدى بالكأس، وقلت:

- «اشرب.. وسوف تشرب هذا مرتين أو ثلاثًا..».

فتناول الكأس منى دون انفعال، لم أر غير شفتيه تتمتان بصوت خفيض: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلا يَخَافُ ظُلْمًا وَلا

هَضْمًا..﴾ [طه: ١١٢]، وغمرتنى الدهشة وأنا أرى الكأس الأسود، يتحول فى يده إلى كأس بلورى شفاف، مضىء كما تضىء العمامة التى تمنيت لو أطفأتها بضربة من قبضة يدى الملطخة بالأوحال، واستحال السائل الأسود إلى مادة صافية لا أثر للأوشاب أو التلويث فيها، وتجرعها زين العابدين باسمًا وهو يقول: «طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس»، ولم أفهم معنى لكلماته، وأهويت عليه بالسوط كما فعلت مع من سبقوه، وكان زين العابدين يمشى فى طريقه، والناس تحنو عليه، وتخشع له بنظرات شفوقة وهو لا يتألم أو يتأوه تحت وطأة السياط، وكأنى أضرب فى قطعة من الصخر، وبالرغم من هذا فقد تعالى ضجيج الناس، وتكاثرت احتجاجاته، ولم تجد صرخات الجند بهم، ولا تهديدهم لهم، وأخذ زين العابدين يبتعد رويدًا رويدًا، بينما ظللت أنا أزاول المهمة العجيبة التى جلست من أجلها..

وانتصف النهار أو كاد يا زوجتى العزيزة، أو هكذا خيل إلىّ، وأحسست بملل شديد، وكرب نفسى مزعج، وفجأة رعدت السماء، وانقض القصر الشامخ الذى أجلس أمامه، وانهارت أعمدته، وتلفت مأخوذًا يمنة ويسرة، والحيرة قد سدت علىّ كل منافذ الفكر، ثم نظرت من جديد إلى الجموع الواقفة، وإلى سياج الجند الذى يمنعهم من الهروب أو الانطلاق، ورأيت العبد

الأعجمي يقبل، وعلى ثغره ابتسامة ساخرة هذه المرة، ولم يكن خائفًا أو متذللاً . . بل أقبل فى ثقة وشجاعة يحسد عليهما، ثم انتزع السوط من يدى، وحمل الرعاء الأسود بشرابه وكأسه إلى مكان قريب، وأشار إلى الناس بيده، فتدافقوا عليه من كل فج، وهم يرسلون صيحات تصم الآذان، وفى يد كل منهم كأس مثل الكأس التى كانت معى، وملؤوا كؤوسهم ثم اتجهوا نحوى . . وبينهم زين العابدين . . عندئذ هتفت بالعبد الأعجمى كى يقبل علىّ، لكنه قهقه ساخراً، وأتانى بكأسه ثم ضغط بأصابعه الغليظة على وجهى وبين فكى، حتى أرغمنى على فتح فمى، وهو يقول:

- «اشرب . . نفس الكأس».

فدفعت الكأس بيدى وأنا أتوعده، لكنه تناول وأهوى على وجهى فى قسوة مؤلمة ترنحت لها، وفقدت السيطرة على أعصابى وقوتى، ووجدتنى مستسلمًا أشرب الكأس، ويا لها من كأس . . كانت لزجة . . نتنة الرائحة . . مرة المذاق . . أحاول أن أتقيأها فلا أستطيع . . وقال العبد والشرر يتطاير من عينيه، وكأنهما عينا مارد جبار:

- «لا تجزع . . ماذا تفعل لو علمت أنك ستشرب آلاف الكؤوس؟؟».

- «آلاف الكؤوس؟».

- «أجل . . انظر إلى هذا الحشد . . وانظر إلى الكؤوس التى معهم ، سوف تشربها جميعًا . . » .

- «سوف تنفجر فى أمعائى . . » .

- «ولِمَ لم تفكر فى أمعاء الآخرين من قبل . . ؟ » .

- «لأنى . . لأنى . . » .

- «لأنك أنانى حقير . . ظالم يا هشام يا بن إسماعيل المخزومى» .

ودارت الكؤوس على ثغرى . . تأتينى ملأى ثم تشيح عنى فارغة . . والسياط التى تنهال على وجهى وعلى جسدى لا حصر لها ، ومن بعيد لمحته قادمًا ، فارتعدت فرائصى وخارت قواى ، كان ذلك هو زين العابدين . . فقلت فى نفسى : «ويحى منه ، سوف يذيقنى هوانًا ما بعده هوان . . » ، لكنى فوجئت به ولا كأس فى يده ، والابتسامة الرائعة الصافية نفسها تتألق على ثغره وفى نظراته ووجدت الناس من ورائه بلا كؤوس ، وحينما اقترب منى مسح على رأسى ، وهمّ أن يقول كلامًا . . لكنى أحسست بك تتقلبين بجوارى على فراش النوم ، ثم تقع يدك على رأسى الملتهب الذى يغمره العرق فأصحو من نومى يا زوجتى العزيزة ، وأنا منهمك مكدود ، محطم الروح والجسد ، والذلة والقهر تملأن فؤادى . .

وهكذا صحوت من نومى، آملاً أن يذوب وهم الحلم الرهيب كما يذوب الثلج تحت وهج الشمس، لكن الألم الذى يحز فى نفسى، والحزن الذى غمر فؤادى، ما برحا يهزان كيانى هزًا عنيفًا، وصور الرؤيا الرهيبة تمر تباعًا بذاكرتى المتعبة المكدودة فتزيدنى همًا وغمًا ما رأيت فى حياتى مثلهما قط . .



[٣]

ولم يجد هشام فى نفسه رغبة أو دفعًا يدفعه للذهاب إلى مقر الإمارة، كانت أفكاره السوداء توهى عزيمته، وتشاؤمه الشديد يهد من نشاطه، وكيف يذهب وكرسى الإمارة يهتز من تحته، بل يوشك أن يقذف به بعيدًا إلى هوة سحيقة. ولا شك شائعة عزله سوف تصل أذان الناس إن عاجلاً أو آجلاً، عندئذ يطرب الأعداء! ويتيه الحاقدون سرورًا وشماتة، وتنتقل همسات الهزء والسخرية من شارع إلى شارع، ومن قبيلة إلى قبيلة، ويعرف القاصى والدانى أن هشام بن إسماعيل المخزومى الجبار العتيد أصبح فردًا ضعيفًا لا عون له ولا سند له..

وتمتم هشام فى حيرة:

- «ماذا أفعل يا زوجتى؟».

- «تذهب إلى مقر حكمك».

- «أكون كمن يسوق نفسه إلى حفرة نار، كمن يشيع جنازة نفسه حيًا . . » .

- «ولم؟؟» .

- «أشعر يا زوجتى كأنى دخيل، لم يعد المكان مكانى . . ويدى خالية من أية سلطة، ومواجهة الناس والجند- وأنا فى مركز مزعزع- أمر قاتل . . قاتل» .

فقالت زوجته فى إصرار :

- «لم يعزلك الخليفة بعد» .

- «ربما . . لكنه أمر شبه مقرر . . » .

- «إن رجولتك تفرض عليك أن تؤدى واجبك حتى آخر لحظة . . » .

فقال وهو يطأطئ رأسه آسفًا :

- «أجل . . أنا جندى من جنود الخليفة . . وطاعتى له يجب أن تكون طاعة عمياء . . » .

ومشى هشام فى شوارع «المدينة» يحيطه موكبه الرسمى كالعادة، وبالرغم من ذلك، فقد كان الموكب باكيًا حزينًا، الجنود لا يجدون فى أنفسهم شيئًا من الحماسة كى ينطلقوا بجيادهم هنا

وهناك ويفسحوا الطريق أمام الأمير، أما المارة فلم تكن هذه عادتهم، كانوا بالأمس حينما يرون موكب الأمير يدلفون إلى الشوارع الجانبية، كي يتجنبوا لقاه، حتى لكأن مجرد رؤيته تثير حفيظهم، أو تدمغهم بدامغ الخوف، وإذا لم يدلفوا إلى شارع جانبي، كانوا يقفون في خشوع، نظراتهم كسيرة، وابتسامة مصطنعة مرتجفة ترتسم على ثغورهم، أما اليوم فلا يفر أحد.. الناس يمرون في الطريق وكأن الأمير واحد منهم، لا يستوجب خشوعًا أو هروبًا إلى طريق آخر، لم يعودوا يطرقون حياء وخجلاً.. بل نظراتهم ترتفع إليه لأول مرة في فضول وتشف..

وغمغم هشام بينه وبين نفسه: «أيها الأغبياء.. الآن ترفعون نظراتكم الوقحة إليّ، لتروا كيف سقطت من علٍ.. كيف لبس وجهي ثوب الكمد والحزن، وكيف احتقنت عيناي من طول السهر.. حملقوا فيّ كيف شئتم.. وتشفوا بمنظر الأمير الحزين الذي يوشك أن ينتهي إلى شيء.. لا أنكر أنكم مساكين، وأنني ظلمتكم.. لكن شماتتكم حمق وغدر وغباء!! إن شماتتكم تزيد من مسخ إنسانيتي وتجعلني أكرهكم لا من أجل بني أمية هذه المرة، لكن من أجل نفسي.. من أجل هزيمتي التي تتلذذون بمشاهدتها.. إن العزل كارثتي الكبرى.. أما الشماتة فهي شيء فوق الكارثة الكبرى.. الموت أهون منها..».

وبرقت فى ذهن هشام خاطرة . . «يا لها من حلم منعش جميل!! لماذا لا تكون شائعة العزل مختلفة من أساسها؟؟ ما أجمله من يوم ذلك الذى أثبت فيه مركزى، وتعود مكانتى إلى هيبتها وسطوتها- ويبقى هشام بن إسماعيل المخزومى واليًا على المدينة رغم الحاسدين والكائدين»، لكن هل سيعود مرة أخرى إلى البطش والإرهاب، وإرغام الناس على الخضوع له والتسبيح بعدله حتى ولو ملأ ربوع المدينة جوراً وعصفًا؟؟ لا . . لا . . لو حدث ما يحلم به فعلاً، فلسوف يخشى الله ويتقيه، وينصف بين عباده، ويحظى بمحبة الخلق والخالق، إن تجربته الماضية كانت درسًا عميقًا، يجب أن يحفر فى ذهنه حفراً لا يمحوه سلطان جديد، أو انتصار طارئ . .

وارتاح هشام لهذا الخاطر، وانجابت عن قلبه غشاوة الألم والحزن إلى حين، وشعر بنسمة رطبة منعشة تلامس جبهته، فرفع رأسه ليستنشق منها، فوقع بصره على مئذنة قبر الرسول، فتذكرنى على الفور تلك الرؤيا الرهيبة، وتذكر المئذنة النورانية التى تصل السماء بالأرض، والتى كانت تجذب إليها الناس جذبًا، فيديرون إليها رؤوسهم، ويشرئبون إليها بأعناقهم ونظراتهم المشتاقة، وسرعان ما عاوده ما كان يكابده بالأمس من هم وقلق وأحزان . .

وبلغ الموكب دار الإمارة، واتخذ هشام مجلسه مثلما كان يفعل كل يوم، والصمت يسود المكان ويلقى عليه ظلاً كئيبًا، يوحى

بالكثير من الحيرة والإشفاق، وبعد فترة أراد هشام أن يقطع حبل الصمت، ليبدد ما غشى المجلس من كآبة ووحشة فصاح بكاتبه:

- «هل أعطيت الصدقات لمستحقيها؟».

- «كلا يا سيدى الأمير..».

- «والجند هل أخذوا مرتباتهم؟».

- «ولا الجند..».

- «إذن لم تفعلوا شيئًا..».

- «أجل..».

فقال هشام والقلق يسيطر عليه:

- «ما معنى ذلك؟».

فأجاب الكاتب مرتجفًا:

- «وصلت رسالة من الخليفة الجديد أمرت بوقف كل شىء..».

وكان لهذه الكلمات القليلة وقع الصاعقة على هشام فاجتابه مزيد من الخوف، وتوجس شرًا، لكنه تمالك أعصابه، وقال:

- «متى وصلت رسالة الخليفة؟».

- «مساء أمس..».

هذا بداية الشر ، والسر الأول فى المأساة التى تنتظر هشام ، هل تصدق شكوكه ، وتتأكد ظنونه ، وتصبح تلك الرؤيا البشعة فألاً سيئًا؟؟

- «ألم تصل رسائل أخرى؟» .

- «كلا يا سيدى الأمير . . ولكن . . » .

فقاطعه متلهفًا :

- «ولكن ماذا؟؟» .

- «وفى ذيل الرسالة يقولون انتظروا أوامر أخرى . . » .

ودهم هشام حنق شديد ، كان على وشك أن ينفجر ، وتمنى أن يجرد سيفه ، وينقض على هؤلاء الرجال القائمين حول ، ويفصل رؤسهم عن أجسادهم ويتملى بمنظر الدم المراق ، خواطر شيطانية حمراء كانت تحتل رأسه ، وتحرضه على التدمير والقتل والانتقام الرهيب ، لكن يده تبدو وكأنها شلاء . . والناس من حوله جامدون متبلدون لا يحسون بشىء ، وهو يائس مسكين لا يدرى ماذا يفعل ، وصرخ فيهم هشام صرخة أزعجتهم :

- «اذهبوا من هنا . . أيتها التماثيل الصخرية!!» .

وتسابقوا إلى الباب ، كل يريد أن ينجو بجلده ، فالشر يتطاير من عينى الأمير ، ويمينه على مقبض السيف ، وجبينه ينضح

بالعرق، ونظرات الجنون تطل من محجريه، ولم يبق أحد غير عبد أسود، كان على شفتيه ابتسامة مرتجفة، وترك هشام سيفه وسحب سوطه، وأهوى به على وجه العبد، وهو يقول:

- «ما الذى أبقاك يا عبد السوء؟؟».

وتلوى العبد من الألم، لكنه تحامل على نفسه، وقال:

- «معذرة يا مولاى.. إنها رسالة من الخليفة..».

وشرد هشام بضع لحظات ثم غمغم: «أنت العبد الأعجمى الذى..» فقال العبد وهو فى شبه انحناءة:

- «أبدًا يا مولاى.. بل خادمك الأمين.. لست أعجميًا ولكن حبشى..».

- «إلىّ بالرسالة..».

وزاغت نظرات هشام وهو يقرأ السطور، وتداخلت الكلمات واختلطت، وبدت الرقعة أمامه، وكأنها مصطبغة بلون أسود غير محدود المعالم، كلمة واحدة كانت واضحة، وكأنها محفورة فى الرقعة «العزل»، لقد حم القضاء، وعزل هشام وانتهى الأمر، ولم يقف البلاء عند هذا الحد، بل ولى الأمر من بعده عمر بن عبد العزيز، الشاب ذو الخمسة وعشرين ربيعًا، والذى تتحدث بمحامده الناس، ويتغنى بسيرته العطرة الرائح والغادى، هل يريد الخليفة

الجديد أن يقول للناس: «لقد مزقت لكم حجب الظلام، وأطلعت لكم الفجر؟».

ورفع هشام رأسه، ووجد العبد ما زال واقفًا أمامه، والابتسامة المرتجفة، قد تحولت إلى ابتسامة ساخرة،.. وصرخ مرة أخرى: «اخرج أيها الوغد..»، وخرج العبد، وتلفت هشام حواليه، فلم يجد أحدًا، وهمّ أن ينادى زوجته، لكنها فى قصرها وفكر فى الجند.. كلا.. لم يعودوا جنوده.. والخدم إنهم تحت سمع وطاعة الوالى الجديد، أصبح طائر بلا أجنحة.. ما الذى يبقيه هنا؟؟ هل يتنظر حتى يأتى موكب الوالى الجديد عمر بن عبد العزيز؟ أيظل هكذا حتى يأتى الجنود بأمر الخليفة، ويقذفوا به ذليلاً مقهورًا، لقد كان يتوقع هذه النهاية السوداء منذ سرت إليه الشائعات، لكن، لكن هذا أمر فظيع.. وتحامل هشام على نفسه، واتجه صوب الباب، وأخذ يجر قدميه جرًا، مخافة أن يتخاذل أو يهوى إلى الأرض.. إلى التراب والطين.. ومناظر البيوت والحوانيت والناس الذين يزحمون الطريق ترتج تحت بصره.. ورأسه ثقيل يكاد يهبط به.. كل شىء فيه ثقيل حتى اختل توازنه.

وقبل أن يصل قصره سمع مناديًا ينادى:

- «يا أهل المدينة.. لقد أمر الخليفة بعزل هشام وتولية عمر بن عبد العزيز.. يا أهل المدينة.. إن الخليفة أمر بأن يقف هشام أمام

دار مروان ليقتص منه كل من آذاه . . شتمه بشتمة . . ولعنة بلعنة . . ولطمه بلطمة . . » .

وسقط قلب هشام، وكأن الدنيا كلها قد انقضت عليه . . ليس الأمر عزلاً فحسب ؛ بل سيقف فى ميدان عام مطأطئ الرأس وسوف يمر عليه أهل المدينة، صغيراً وكبيراً، عظيماً وحقيراً، نساء ورجالاً، ليقتصوا منه ؛ ويأخذوا بثأرهم . . يا للمهزلة!! سوف يشرب من الكأس نفسه الذى سقاهم منها . . الموت أهون من كل ذلك . . وما قيمة الحياة التى يحياها فيما بعد حيث تؤرقها ذكرى الصفعات والشتائم والبصقات التى تلطخ جبينه؟؟ .

وأسرع هشام وهو فى عجلة من أمره، وفارقه تعقله ورزانته، وأصبح يتصرف كفتى أرعن يريد أن يهرب من مصيره، حتى لا يواجه يوم الثأر . . يوم القصاص الرهيب .

وبلغ مسكنه وسحنته سحنة مجنون لا يكاد يعى شيئًا من حوله، ولما رأى زوجته قال متخبطًا :

- «هيا يا امرأة . . يجب أن نهرب حالاً . . لقد أمر الخليفة بعزلى والاقتصاص منى» .

وفتحت زوجته فاها دهشة، وأسقط فى يدها، وشل ذهنها عن التفكير، وأخذت تنظر إلى زوجها المضطرب المرتبك وهو يجمع

حاجاته، ويضع نقوده فى مخلاة معه، ويعد العدة للرحيل، إنه يريد أن ينطلق فى بطن الصحراء. . ولو أدى الأمر إلى أن يموت جوعًا وعطشًا، أما هذا الموقف الرهيب فلن يحتمله وصرخ هشام فى زوجته الواقفة فى جمود وذهول:

- «هيا أيتها البلهاء . . ماذا تنتظرين؟؟».

وتحركت زوجته وأخذت تجمع ما تستطيع جمعه. . وبعد ساعة، كان كل شيء معدًا للرحيل. .

ودار هشام بنظراته الحزينة فى أرجاء المهيب. . كان يودع الذكريات والأشياء والليالى التى مضت، ثم انتزع نفسه انتزاعًا من هذا الموقف المتأزم. . وهمّ بأن يركب جواده وفجأة وجد رهطًا من الجند ؛ يحيطون به، وصاح قائدهم بصوت أجش:

- «إلى أين؟؟».

- «إلى حيث أشاء. .».

- «كلام يا هشام يا ابن إسماعيل المخزومى. . أمر الخليفة بأن غدًا يوم القصاص. .».

- «لكن. .».

- «لا كلام. . أوامر الخليفة يجب أن تطاع. . عد إلى قصرك. .».

وفى الصباح كان هشام يقف متخاذلاً ذاهلاً أمام دار مروان، والآلاف من سكان المدينة يمرون عليه، صفعة بصفعة، ولعنة بلعنة، وعبد أسود يرفع سوطه ثم يهوى عليه، وعلى فمه ابتسامة ساخرة، الكأس السوداء نفسها التى سقاها للناس، كأس الظلم والعسف.

لكن هل يقف الأمر عند هذا الحد؟؟.

أين زين العابدين بن الحسين؟؟ أين أهل البيت ومواليهم؟؟ لا بد أنهم سوف يقتلونه، نطالما أذاقهم الهوان والعذاب.

●●●

وانتصف النهار.. ثم اصفر الأصيل.. وساد الأفق شحوب ووجوم وغبار، وعندئذ رأى الناس زين العابدين قد جاء، وحوله جمع حافل من مواليه وأهل بيته، فأوجس هشام خيفة وخيل إليه أن الموت يدنو منه مع كل خطوة يخطوها زين العابدين، فلما كان أمامه، واستسلم هشام لليأس، وبلغت روحه الحلقوم، قال زين العابدين:

- «السلام عليكم يا هشام..».

ومد يده إليه يصافحه، ويهز يده ويمسك بها، ومد هشام يده، ثم أسلم نفسه إليه، وخفض رأسه وبكى، وقال زين العابدين:

- «إن كانت لك حاجة فإنا نقضيها لك، وإن كان عليك دين من ولايتك، فإنا نسد دينك..».

فأجهش هشام بالبكاء.. وانهمرت دموع الأمير ساخنة فوق خديه، ولم يكن الناس يعرفون المغزى الحقيقى لهذه الدموع، أهى دموع الشكر والاعتراف بالجميل، أم دموع الندم والتوبة، أم دموع الحسرة والذلة على ملك ضاع، ومجد يستدر الشفقة والدموع..؟؟ لكن هشام تمتم:

- «الله أعلم حيث يجعل رسالته..».

ثم مضى زين العابدين، ومضى من خلفه أهله ومواليه، لم ينظر أحد منهم إلى وجه هشام فى شماته وحقد، ولم يتناوله بسباب أو أذى، أو تمتد إليه يد بسوء، وقال زين العابدين وهو يبتعد عنه:

- «إنه معزول، فليست له قوة، ونحن نعلو ونستكبر عن إيذاء الضعفاء..».

وهكذا كف جميع الناس عن إيذائه بعد ذلك.

آلاف الخواطر والأفكار والذكريات، كانت تتوارد على ذهن هشام طوال هذه الفترة الرهيبة، والشمس غابت أو كادت، والميدان خلا من الناس، وأصبح هشام وقصته وعهده مجرد ذكرى..

ذكرى تثير السخط والعبرة والرثاء، وسمع هشام من خلفه صوت قائد الجند، وهو يقول بصوت آمر، يخلو من الانفعال والرحمة:

- «الآن تستطيع أن تذهب حيث شئت..».

وجمد هشام فى مكانه لحظات، ثم مشى ليأخذ زوجته، ويمضى إلى حيث تقذف به الأقدار فى متاهات الألم والأحزان والذكريات المريرة..





القلب الكبير

كانت القافلة متعبة بعد أن أضناها المسير وبُعدُ الشقة، لكن كان عزاء المسافرين هو الأمل الحلو الذى يداعبهم، والذى سوف يتحقق ببلوغهم أرض الرسول، وزيارة الأماكن المقدسة وبالرغم من ذلك التعب، فإن شيخ القافلة ورأسها، «عبد الله بن المبارك» كان يحس لذة عارمة، ونشوة دافقة، حين يشده الحنين إلى الأمام، ويدفعه الشوق تجاه أرض الرسول؛ فينسى ما ألم به من تعب، وما مسه من لغوب، ونظر عبد الله بن المبارك فلمح عددًا قليلاً من البيوت التى تشبه الأكواخ إلى حد كبير، وإلى جوارها بضعة شجيرات تتسكع إلى جوارها بعض الأغنام، فالتفت إلى وكيله قائلاً:

- «آن لنا أن ننال قسطًا من الراحة، لقد قطعنا من خراسان إلى هنا مسافة طويلة».

- «أجل يا سيدى الشيخ».

- «إن لبدنك عليك حقًا، وهذه الإبل والجياد هى الأخرى يجب أن تستريح وتطعم وتشرب».

فرد وكيله قائلاً:

«القول ما قلت. . فقد رأيت على وجوه الرجال ما ينبئ عن رغبتهم فى الراحة».

●●●

وتوقفت القافلة، وأناخت الإبل، وأخذ المسافرون ينفضون ثيابهم غبار السفر، بينما انتحى عبد الله بن المبارك جانبًا، واتجه صوب القبلة، وطرح بردته، وأخذ يبتهل إلى الله فى حرارة المؤمن، وإخلاص الزاهد، وصبر المكافح المجاهد، فتعلقت به عيون أتباعه في إعجاب وتقدير. . كان طرازًا من الرجال عجيبًا، ونمطًا فذًا، ولهذا غمغم أحد الرجال قائلاً:

- «ويحك يا ابن المبارك، يخيل إلىّ أنك لست من أهل الأرض».

فرد عليه رجل يجاوره كث اللحية، وقد كسا وجهه ورأسه رونق الشيب، وقال:

- «وفيم العجب يا أخى؟؟».

- «إنى كثيرًا ما أفكر فى أمر هذا الرجل، فلا أكاد أصدق ما تقع عليه عينى. . إنه فى ميدان العلم إمام المحدثين وأحد أربعة أعلام يرون الحديث، ويحمون ذلك التراث الكبير. . وفى الزهد قل أن تجد له مثيلاً، حتى لكأن هذه الدنيا بمالها وجمالها لا تستطيع أن تميل به، أو تصرفه عن خطته التى التزمها قيد أنملة، وفى الحرب أمره عجيب، يدلف إلى الثغور الواقعة بيننا وبين الأعداء، ويحقق من النصر هو ورفاقه ما لا يصدقه عقل، وفى أمور الدنيا وتجاراتها نابه فذ، ماذا تريد أيها الشيخ أكثر من ذلك؟».

فهز الشيخ ذو اللحية البيضاء رأسه، ثم قال:

- «المؤمن الحق يا ولدى يرى بنور الله، فيأخذ من دنياه بنصيب، ومن آخرته بنصيب، وشيخنا عالم جليل، اكتملت له أدوات الحكمة، وأضاء الله قلبه بالحب والمعرفة، وأشربت نفسه برحيق الإيمان.. فبدا خلقًا آخر..».

وبينما هما يتجاذبان أطراف الحديث، ويكيلان الثناء للشيخ عبد الله بن المبارك، الذى لم يزل يضرع إلى الله، وفد عليهما ثالث وقال:

- «فيم تثرثران؟؟ ألا تعلمان أن طائرى السمين الذى كنت أمنى نفسى بأكلة شهية منه، قد وجدته ميتًا بعد أن اختنق؟ إن الجوع أيها الإخوان قد جعلنى أشد حزنًا وأسفًا على طائرى الجميل..».

فقال الشيخ ذو اللحية البيضاء فى سخرية محببة:

- «البقية فى حياتك.. حسب ابن آدم لقيمات يقمن بها صلبه..».

فمط الرجل شفتيه متحسرًا وحمل طائره ومضى ثم قصد «مزبلة» قريبة من الأكواخ التى نزلوا إلى جوارها، وفى طريقه إلى هناك لمحه ابن المبارك، بعد أن انتهى من صلاته، ثم أقبل نحوه وقال:

- «سوف أصحبك إلى هذه الأكواخ كى نرى ما هناك، ونعرف شيئًا عن أهلها . . . » .

ومشى ابن المبارك ومعه صاحب الطائر الميت، وحينما وصلا إلى هناك، أخذ ابن المبارك يتلفت يمنة ويسرة فأبصر بنتًا تسرع ناحية «المزبلة» وتختطف الطائر الميت، وتسرع نحو كوخها، وكأنها قد حصلت على كنز من كنوز الدنيا، فأسرع ابن المبارك خلفها، بعد أن أخذ العجب والتقزز فى الوقت نفسه، وأخذت تنظر إليه بعينين خائفتين، فيهما توسل وضراعة، ثم طفرت من بين أهدابها السمراء دموع، وغمغمت فى رعب :

- «رحماك يا سيدى ! ! ماذا تنوى أن تفعل بى؟؟» .

فقال الشيخ محاولاً أن يهدئ من روعها :

- «لا تخافى يا ابنتى . . لماذا اختطفت هذا الطائر الميت؟ إن اللعب به أمر ممجوج . . » .

فطأطأت الفتاة رأسها بعد أن هدأت قليلاً، وقالت فى صوت مبحوح من أثر البكاء الذى غلبها :

- «إن الجوع قد عذبنى أنا وأخى طيلة يومين كاملين إنه شىء قاتل . . فظيع يا سيدى . . » .

فقال ابن المبارك فى استغراب :

- «ماذا تعنين بكلامك هذا؟».

- «معنى ذلك أننا سوف نأكل هذا الطائر الميت!!».

- «أتأكلين الميتة؟؟».

- «الجوع كافر.. لا يرحم..».

- «أستغفر الله.. هذا حرام..».

فقالت الفتاة فى مسكنة وبساطة مفحمة:

- «وحرام أيضًا يا سيدى أن نموت جوعًا...»

وأخذت الفتاة تسرد قصة حياتها الدامية، وكيف أنها تعيش مع أخيها وحيدين بلا عائل أو سند، يعيشان على النذر القليل من الصدقات والفتات والميتة فقاطعها الشيخ قائلاً:

- «ولكن أين ذهب أبوك يا فتاة؟».

فجرت دموعها فوق خديها بغزارة، وسمات المذلة والألم والحرمان مرتسمة فوق ملامحها الغضة الدقيقة، وقالت:

- «كنا سعداء.. وكان أبى يكدح من أجلنا، ويطعمنا ما نشاء، وكان لدينا المال والمتاع.. لم نكن نحس بآلام الدنيا ومآسى الحياة حتى خيل إلينا أنه ليس فى الحياة شقاء.. آه.. ثم جاءوا ذات يوم..».

ولم تستطع الفتاة أن تكمل الحديث بعد أن غلبها الحزن الشديد، غير أن عبد الله بن المبارك ربت على كتفها فى حنان، وقال:

- «أكملى حديثك يا ابنتى.. قولى.. من الذين جاءوا؟؟».

- «الذئاب..».

- «الذئاب؟؟».

- «أجل. ذئاب بشرية.. قوم ناصبونا العداء، وظلموا أبى وجردوه من كل ما يملك، ثم قتلوه.. ولم يكن لنا سواه.. وأصبحنا اليوم -أنا وأخى- لا نملك سوى ذلك الإزار الذى نرتديه..».

وصمتت الفتاة، ووقفت جامدة، وفى يدها الطائر الميت ووقف عبد الله بن المبارك شاردًا، كان يفكر فى أمر هذه الفتاة وفى أمر نفسه أيضًا.. إنه يحج إلى بيت الله كل عام تقريبًا ويصحب معه قافلة طويلة يغدق عليهم، ويتصدق على فقرائهم، ومثل هذه الفتاة المسكينة تعيش مع أخيها لا تجد ما تأكله سوى الميتة.. أبوها قتيل مظلوم وحياتها فراغ.. ووحشة.. وخوف، وبطنها فارغ أما هو ما أبشع الفارق بينه وبينها، أى زهد قد وصفه الناس به وأية شجاعة قد أسبغوها عليه؟ ترى كيف تقضى تلك الفتاة ليلها الطويل الملىء بالعذاب والسهاد؟ وهل ترتجف من برودة الجوع أم تهزها مشاعر الخوف من الذئاب؟؟.

وظلت تطوف برأسه صور حزينة محرقة، صورة الخائفين المتلهفين إلى طعام، وصورة المظلومين الذين طال شوقهم إلى العدل وآلاف الدموع التى تسفح كل مساء فى أكواح أشبه بالمقابر، وأقوام العذاب، ليته يسل سيفه لا ليحارب الأعداء فحسب لدى الثغور والحدود بل يشهره فى وجه الظلم.. والعذاب.. وآلام البشر.. واختلجت أجفان ابن المبارك وبكى.. وبكى كما لم يبك قط فى حياته.. بل خجل من نفسه -وهو الإنسان الكبير- وتضاءل أمام تلك الجائعة الخائفة.. الشاحبة التى تمسك فى يدها طائراً ميتًا وتتشبث به.. كانت بمثابة مأساة متجسمة صارخة أمام عينيه.. وصرخات الضراعة تنبثق من عينيها من فمها الدقيق الصامت... من ثوبها المهلهل المذرى وقدميها الحافيتين النحيلتين وشعرها الأشعث المغبر وملامحها الفاتنة التى صبغها البؤس وغطاها الشقاء.

وصاح ابن المبارك بمرافقه:

- «اذهب وأحضر وكيلى حالاً».

- «السمع والطاعة يا شيخى الجليل».

- «اذهب. نحن غافلون».

وما هى إلا دقائق حتى كان الرجل حاضراً؛ وسأله ابن المبارك.

- «ماذا معك من مال؟».

- «ألف دينار يا سيدى الشيخ».

- «احجز منها عشرين . . وأعطنى الباقى».

وتناول ابن المبارك المال من يد وكيله، ثم أقبل على الفتاة فى تودد وإشواق:

- «إليك يا فتاتى هذا المال، لعله يعينك فى محنتك القاسية ويمنعك من أن تأكلى الميتة . . اذهبى إلى أخيك، واشترى له طعامًا وكساء، وأغنامًا . . . والله يرعاكما».

فأجفلت الفتاة مذعورة، وهى تقول:

- «إنك تسخر منى يا سيدى».

- «صدقينى يا ابنتى، إن هذا كله لك».

فقالت فى نبرات متقطعة:

- «هـ . . هذا . . كـ . . جدًا يا مولاى الأمير . .».

- «لست أميرًا يا فتاتى . . وإنما أنا عبد من عباد الله، وكلنا لآدم، وآدم من تراب . .».

وأخذت الفتاة المال ذاهلة، وكأنها فى شبه حلم، ثم اندفعت تجرى نحو الكوخ، وهى تهذى بكلمات لا تبين حروفها.

أما الشيخ فقد عاد إلى القافلة، وعندما بلغ هناك، قال وكيله في صوت خفيض:

- «كيف نكمل رحلتنا إلى أرض الرسول؟؟ إن العشرين ديناراً لا تجدى فتيلاً».

فالتفت إليه عبد الله بن المبارك، وقال:

- «إنها تكفينا كى نعود إلى «مرو»، وهذا أفضل من الحج هذا العام..».

وصاح موجهًا حديثه إلى الرجال:

- «شدوا الرحال أيها الرجال.. إننا عائدون من حيث أتينا.. وموعدنا العام القادم إن شاء الله..».

●●●

وفى طريق العودة لم يكن للقافلة كلها حديث سوى تلك الحادثة التى جرت لهم، وحرمتهم من الحج، وذلك الشيخ الإنسان صاحب القلب الكبير..

أما الشيخ فقد كان يتذكر تلك الحادثة التى هزته، من آن لآخر، ثم تنفرط منه الدموع..

●●●



الإمام الأعظم

كـان يمـضى فى شـوارع «الكوفـة» ويتلفت هنا وهنـاك، ويرمق الناس والمبانى والدواب، ويتفحص كل ما تقع عليه عيناه كأنه قارئ واع دقيق، يتصفح كتابًا مهمًا، لقد كان غريبًا على الكوفة، ولم يكد يمر عليه وقت قصير حتى ترك راحلته فى مكان أمين، ثم اتخذ سمته ناحية المسجد الكبير القائم وسط المدينة، وكان الناظر إليه يشعر لأول وهلة أن هذا الرجل غـريب؛ لأن غبـار السفر مـا زال عالقًا بردائه الفضفاض، ووجهه الأسمر الجامد الملامح، وأجفان عينيه اللتين بانت فيهما آثار سفر وسهر متعب طويل تتجمع فيها فلسفات عدة، وأفكار متباينة، وفيها عرب وعجم، وشيعة وخوارج وأمويون، وفيها مذاهب شتى فى الفقه والسياسة، بالإضافة إلى الحركة التجارية النشطة.

وكانت الدولة العباسية آنذاك فى أعوامها الأولى تحاول أن تقضى على المناوئين والحاسدين، وتبنى استقرارها ومجدها على أكوام من الأشلاء، وعلى شطآن بحيرات من الدم. . أما هذا الضيف الغريب، فهو أحد أحفاد العرب الذين استوطنوا مصر بعد أن فتحها عمرو بن العاص، وقد جاء إلى الكوفة، ليحقق لنفسه رغبة طالما تمناها وحلم بها. . وما أن وصل إلى باب المسجد الكبير حتى سمع صيحات عالية ثم قهقهة مرتفعة تصدر من البيت المقابل

للمسجد، والتفت السائح الغريب إلى مصدر الصياح والجلبة فرأى امرأة فى داخل البيت منكوشة الشعر، بلهاء النظرات، ملوثة الوجه، تثب هنا وهناك، وتضحك ثم تصيح، وتحاول أن تقلد أصوات الماعز والجمال، ومن خلفها امرأة أخرى تحاول أن تمسك بيدها لتهدئها، وتردها إلى صوابها وسكونها، وتقول لها:

- «يا أم عمران.. بالله عليك لا تفضحينا، وكفى صياحًا وتهريجًا...».

فلا يزيدها هذه الرجاء إلا إصرارًا على الصياح والعبث فتعود إليها المرأة متوسلة من جديد:

- «يا أم عمران.. إن المسجد مكتظ بالناس الوافدين من كل مكان... ماذا يقول عنا القاضى عبد الرحمن بن أبى ليلى؟؟ وماذا يظن الإمام الأعظم أبو حنيفة النعمان؟ إنى أضرع إليك يا أم عمران أن تذهبى إلى الحجرة الداخلية.. ألا تستجيبين لضراعتى؟؟».

وأقبلت المرأة نحو أم عمران، محاولة أن تستدرجها إلى الحجرة الداخلية، فترمقها بنظرات خائفة متوسلة لعلها ترق، لكن أم عمران انتزعت نفسها منها، وهى تقول:

- «لا أحب هذا السجن الأسود الذى تحبسيننى فيه أيتها المرأة القاسية..».

واقتربت أم عمران من باب المسجد الكبير ، وهى تمشى على يديها ورجليها مقلدة بذلك الشاة فى مشيتها وفى صوتها ، فلما رآها أحد المارة على هذه الحالة ، أفلتت منه ضحكة ساخرة عالية لم يستطع أن يكتمها ، فانتصبت أم عمران واقفة ، والتفتت إليه وقالت له ، وعيناها تقدحان بالشرر :

- «يا ابن الزانيين . . » .

وكان العالم الجليل عبد الرحمن بن أبى ليلى -أحد قضاة الكوفة- يدلف فى تلك الساعة إلى المسجد الكبير ، فما أن سمع هذا القذف والاتهام الشنيع بالزنا ، حتى اكتسى وجهه بالشحوب وبات فى عينيه الغضب والدهشة ، والتفت إلى أم عمران فرآها تواصل سبابها العلنى ، فقال الشيخ لمن حوله :

- «إلىّ بهذه المرأة . . لقد تفوهت بالفاحش من القول ويجب أن تعاقب على ما اقترفت من إثم» .

وسيقت أم عمران إلى حيث يجلس القاضى عبد الرحمن بن أبى ليلى ، فنظر فى أمرها ، وهو ينعى على هذه المرأة عدم احترامها لحق الآخرين فى الطريق العام ، ولحرمة المسجد ومن فيه ، ومراعاة الآداب الإسلامية العامة ، وذلك بالتفوه بتلك الكلمات الخارجة البذيئة ، لهذا أصدر الشيخ حكمه ، وهو يقضى بإقامة حد القذف

على «أم عمران» مرتين لا مرة واحدة؛ وذلك لأن القذف تناول اثنين لا واحداً وهما والدا المعتدى عليه . .

وكان الغريب الوافد من مصر يرقب هذه التطورات فى عجب ودهشة، لكنه تذكر السبب الذى جاء من أجله إلى الكوفة، فسارع إلى أحد المصلين بالمسجد، وقال:

- «أتسمح لى بالحديث معك يا أخا الإسلام . . إنى غريب نزل دياركم اليوم . . ».

- «على الرحب والسعة . . بل نحن الضيوف وأنت رب المنزل . . من أى الديار وفدت علينا يا عبد الله؟؟».

- «إنى سائح من مصر، جئت أبغى لقاء الإمام الأعظم».

- «من تقصد يا أخى المصرى؟».

- «عجبًا . . أهناك إمامان عظيمان فى الكوفة؟».

قالها دهشًا، فرد عليه الكوفى ساخرًا:

- «إن الكوفة يا ضيفنا العزيز ملأى بالأئمة العظام . . إمام الشيعة . . وإمام الخوارج . . وإما أهل السنة . . وإمام الـ . . فقاطعه المصرى قائلاً:

- «لا أقصد . . ».

- «ماذا تعنى إذن؟».

- «الإمام الأعظم أبو حنيفة النعمان.. بطل التسامح والحرية والكرم، وسيد العلماء العاملين فى هذا الزمان.. يا عجبًا.. إن زامر الحى لا يطرب.. ولا كرامة لنبى فى وطنه..».

فهز الكوفى رأسه، وقال مشيراً بيده:

- «هناك فى تلك الحلقة الواسعة يجلس أبو حنيفة، وحوليه عشرات من تلامذته.. فيهم ابن أبى يوسف ومحمد والحسن وغيرهم.. أما أنا فمن تلامذة ابن أبى ليلى..».

- «شكراً لك..».

- «الشكر لله..».

واتجه السائح المصرى إلى حلقة الدرس التى يتربع فيها أبو حنيفة، وأسرع فى خطوه، والسعادة تغمر كيانه، وتملأ روحه وقلبه، وانعكس ذلك كله على وجهه، فافتر ثغره عن ابتسامة مشرقة، فقد أوشكت أمنيته أن تتحقق، ولم تكن هذه الأمنية إلا أن يرى أبا حنيفة النعمان، ويحظى بلقائه ومجالسته ومحادثته، قبل أن يودع الحياة، بعد أن ذاع صيت الإمام فى مشارق العالم الإسلامى ومغاربه، كحام للشريعة، وبارع فى الفقه ومدون

لبنوده، وكاشف عن أسراره وكنوزه الثمينة، ورائد من رواد الحرية والرأى السليم.

●●●

كانت الحلقة يومذاك، فى نقاش حاد، وجدل مصطحب، والإمام أبو حنيفة يستمع لكل الآراء فى هدوء، وثبات عجيبين، فيقبل على المعارضين والمؤيدين -على السواء- بوجه باش، وقلب كبير منزه عن الضيق والتبرم والتعصب، وكان موضوع نقاشهم القضية التى فصل فيها ابن ليلى من دقائق، وأقام فيها حدين اثنين. . قضية أم عمران. . وما أن تأهب الإمام الأعظم للكلام، حتى خفت الأصوات، وسكن الاضطراب، وأصبح الجالسون مجرد آذان صامتة، وعيون محملقة، لتتلقف ما ينطق به أبو حنيفة؛ لأنه لا ينطق إلا الحكمة والرأى الراجح المستمد من علمه، النابع من كتاب الله وسنة رسوله، وسيرة الصحابة الأعلام من بعده، وقال أبو حنيفة:

- «لقد أخطأ ابن أبى ليلى فى ستة مواضع. . الأول: أنه أقام الحد فى المسجد ولا تقام الحدود والعقوبات فى المساجد، والثانى: أنه ضربها قائمة، والنساء يضربن قعودًا، والثالث: أنه ضرب لأبى الرجل حدًا، ولأمه حدًا، ولو أن الرجل قذف جماعة، كان عليه

حد واحد . . أما الرابع: فإنه جمع بين حدين، ولا يجمع بين حدين حتى يخف أحدهما، والخامس: أن المجنونة ليس عليها حد، وأخيرًا السادس: أنه حد لأبوين وهما غائبان لم يحضرا فيدعيان . . » .

وأنهى أبو حنيفة كلامه بين دهشة السامعين، لسرعة بديهته، وسلامة منطقه، وتكييفه للقضية تكييفًا قانونيًا رائعًا، فأسرع تلاميذه وسامعوه يدونون هذه الدرر والآيات البالغة، قبل أن تتناولها يد التخريف، أو يغرقها غبار النسيان، ولكي تكون تراثًا إسلاميًا خالدًا .

أما السائح المصرى فقد أقبل فى لهفة واشتياق نحو الشيخ، وأخذ يصافحه فى شغف، ويملأ عينيه من وجهه المشرق وورعه الذى يطل من كل حركة تبدر منه، وفى كل كلمة تصدر عنه، وقبل أن يقوم أبو حنيفة من مجلسه، أخذ يستفسر عن أصحابه المرضى منهم ليعودهم فى منازلهم .

ولم ينس أبو حنيفة أن يطلب من الزائر المصرى أن يكون فى ضيافته طيلة المدة التى سيقضيها فى الكوفة، وحينما عادا معًا إلى بيت الإمام، وجداه يموج بالضيوف وذوى الحاجات، ولاحظ الضيف أن أبا حنيفة ينفق بسخاء ويأوى كثيرًا من التلاميذ

ويعولهم، أولئك التلاميذ الفقراء الذين سيكون لهم فى المستقبل القريب شأن كبير، يحسدهم عليه الخلفاء والأمراء والقواد والعظماء.

●●●

وأخذ السائح الغريب يرافق الإمام أينما ذهب، وفى متجره الواسع، فرأى الشيخ تاجرًا ناجحًا - بزازًا - يعامل الناس فى حسن، ويقنع بالربح المعقول، ولا يعرف مساومة ولا مماطلة، رأس ماله صدق وأمانة وقناعة، وعملاؤه من كل مكان.. مكة.. المدينة.. البصرة.. وكان خبيرًا بانفعالات النفوس، ومقتضيات العصر، وفنون العرض، واقعى النظرة، فنجحت تجارته، وانتعش دخله، لكنه لم يبق لنفسه ولأسرته إلا ما يكاد يكفيهم ويقوم بأودهم.

هكذا وقته كان موزعًا بين العلم، والبيع والشراء فى حانوته، والعبادة، وإعطاء أهل بيته حقهم.. واستطاع بذلك أن يوفق بين دينه ودنياه، ويجمع بين العلم والعمل.

ودخل «حماد» على أبيه الإمام أبى حنيفة مكفهر الوجه، وكان فى مجيء حماد ما ينبى عن القلق والحيرة، ولاحظ الشيخ ذلك لكنه بقى هادئًا وقورًا كالعهد به، لا تهزه الأحداث ولا ترهبه النكبات.. وأخيرًا قال حماد:

- «معذرة يا أبى . . لقد أصدر الأمير اليوم أمرًا تصديك للفتوى منذ الآن . . » .

وسادت الشيخ موجة من حزن وألم، ولكنه سرعان ما عاد إلى هدوئه، وأشار إلى حماد أن يجمع بعض الأثواب الحريرية المبعثرة فى نواحى الحانوت وينظمها، ويحسن لفها ووضعها فى مكانها المعد لها، حتى تبدو أنيقة سارة حسنة المظهر . . وقام حماد بما أمر به أبوه، ثم عاد إليه يقول :

- «لِمَ لم تسألنى عن السبب؟؟» .

فقال الإمام :

- «تكلم . . » .

- «سأخبرك به . . يظهر أن أبا ليلى قد ساءته الفتوى التى أعلنتها بشأن قضية أم عمران . . . ويظهر أنه وقع فى حرج شديد فبلغ الخبر مسامع أمير المسلمين بالكوفة مشوهًا . . فقرر ألا يتعرض أحد لأحكام قضاته بنقض أو نقد، حتى يحفظ للقضاء هيبته وقدسيته كما يزعم . . ولا تنس يا أبى أن الأمير يحمل لك شيئًا فى نفسه . . لأنك تعترض على بعض تصرفاته غير اللائقة . . » .

فتمتم أبو حنيفة فى ثقة وإيمان وهو يهم بالوقوف :

- «إن الله لا يستحى من الحق . . » .

وانطلق الإمام خارجًا من حانوته، وهو يقول :

- «سمعًا وطاعة أيها الأمير . . لسوف أكف عن الفتوى حسبما رأيت . . » .

واعتصم أبو حنيفة بالصبر والصمت، وانتشر خبر قضية أم عمران فى أنحاء الكوفة، وتعداها إلى البصرة والمدينة وغيرها، وذاع أيضًا خبر إيقاف الإمام عن الفتيا، وأصبح هذا الأمر حديث المجالس والحلقات الدراسية وارتفع قدره فى أعين المسلمين درجات ودرجات وجاء السائح المصرى ذات مساء، وصافح الإمام وقال :

- «ها أنا قد عشت فى كنفك أيامًا طيبة كريمة . . » .

فرد عليه قائلاً :

- «استغفر الله، بل أنت فى كنف الله» .

وطأطأ المصرى رأسه فى استحياء، ثم قال :

- «لعلك لا تتهمنى بالملق يا سيدى الإمام حينما أخبرك بأنك ملأت قلبى وروحى بنور جديد، وبعثت فىّ حياة جديدة . . إن كلامك -كأفعالك- يسرى إلى سويداء قلبى، فأستشعر الأمن والثقة والأمل الكبير . . » .

- «هذا من فضل الله» .

- «غير أن ما يؤلمنى هو منعك من الإفتاء . . لأنك أبديت الرأى الحر السليم الذى يرضى الله . . ولهذا عولت على الرحيل إلى مصر . . بلادى» .

ولم يكن كلام الشائح إلا صدى لما يعتمل فى قلوب أهل الكوفة وغيرهم ، فقد داهمهم الملل والضيق ، وأحسوا بالفراغ الكبير الذى خلفه الإمام بعد احتجاجه عن الإفتاء ، إن أمثال أبى حنيفة قد يرجحون جيلاً . . بل أمة بأكملها إذا أخذوا بالمعايير الإنسانية .

وظل الإمام يحدث ضيفه وتشعب بهما الحديث عن العلم ورسالة العلم ، وكرامته ، كان الإمام يقول :

- «خير الكلام -يا أخى- ما أريد به وجه الله . . ومن تعلم العلم للدينا حرم بركته ، ولم يرسخ فى قلبه ، ومن تعلمه للدين بورك فى علمه ، ورسخ فى قلبه وانتفع المقتبسون منه» .

فرد الضيف فى حدة قائلاً :

- «لكن يا سيدى الإمام . . أهكذا يعامل رجال العلم وحرّاس الشريعة ، ويمنعون من الفتيا ، وتصادر حرياتهم؟» .

- «لا تغضب . . إن الله مع الصابرين . . » .

ودخل حماد مهرولاً ، وهو يقول فى عجلة :

- «أبى . . » .

- «ما وراءك يا حماد؟» .

- «رسول الأمير يريد لقاءك فى آمر خاص» .

قال الإمام مرحبًا :

- «نزل أهلاً وحل سهلاً . . لكن أظن أنه لا داعى لهذا الارتباك البادى على وجهك يا حماد . . دعه يشرفنا . . » .

وهمّ الإمام باستقباله والترحيب به ، شأنه فى ذلك كسابق عهده فى معاملة كل ضيوفه وتلامذته ، دون تمييز أو محاباة وأقبل رسول الأمير ، ودار بينهما حديث قصير ، ووضع الإمام نهاية لهذا الحديث حينما قال :

- «لكن أنا محجور علىّ ، ولا أستطيع ذلك» .

- «إذن سأعود لمقابلة الأمير وسأخبره بهذا . . » .

وبعد أن خرج الرسول ، قال الضيف :

- «لعلى لا أكون فضوليًا حينما أسألك عما يريده هذا الرسول . . » .

- «أرجو أن يكون خيراً . . لقد أرسله ولى العهد يستفسر عن مسألة فقهية . . » .

- «وما هى تللك المسألة؟» .

- «لا أعلم، فقد أبيت الفتيا» .

- «لكن كيف تتركه دون أن تجيب على سؤاله؟؟» .

فابتسم أبو حنيفة، وقال :

- «وما ذنبى؟ إنى مازلت محرومًا من حق الإفتاء» .

ولم يكد يمضى وقت قصير حتى جاءت إلى أبى حنيفة رقعة مكتوب عليها بخط الأمير وتوقيعه، يسمح له فيها بالعودة إلى الإفتاء مع اعتذار رقيق . .

وتمت الإمام فى انفعال جياش :

- «ربى ارحمنى يوم يبعث عبادك، وقنى عذابك واغفر ذنوبى يوم يقوم الأشهاد . . » .

وفى اليوم التالى كان أبو حنيفة بوجهه المشرق، وحديثه العذب الرقراق، يتوسط الحلقة من جديد، فى المسجد الكبير، وعلى مسافة منه جلس عبد الرحمن بن أبى ليلى، وأخذا يتبادلان التحيات والابتسامات فى صفاء وأخوة كبيرة، تعلو على الأحقاد الصغيرة، وهفوات البشر .

والسائح المصرى يرى هذا المشهد الرائع، وقد امتلأت نفسه

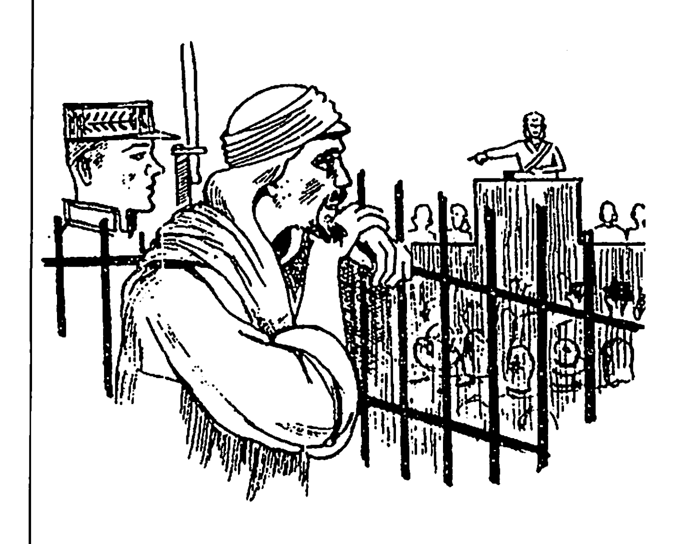
وضاءة وحبًا وإعجابًا، وصحا من نشوته الحلوة واقترب من الإمام مستأذنًا فى السفر، فقد طال فراقه لأهله وذويه، فصحبه الإمام مودعًا، ولدى عتبة أم عمران سمعاها تقهقه وتصيح وتقلد أصوات الحيوانات والطيور، فتبادل الإمام وضيفه نظرات ذات معنى عميق، وهتف أبو حنيفة فى صدق:

«شفاك الله يا أم عمران..».

وقال الضيف المسافر:

- «وشفا الله الأمة -بأمثالك- من أحقادها وأزماتها وزيفها..».

●●●



أبو معزة

الزنزانة صامتة كالقبر، وظلامها دامس مكفهر كموجه الشيطان، وبين آونة وأخرى يتناهى إلى السمع صوت الأحذية الثقلية وهى تدق الأرض فى غلظة وتحد مثير، وشيء آخر كان يقطع السكون، إنه التأوه المكتوم فى الزنزانات المجاورة..

وفى ركن من أركان الزنزانة الصامتة المظلمة، تربع شيخ مهيب الطلعة ذو لحية بيضاء تكاد تبدد ما يكتنف الوجه السمح من ظلمة متكلفة، ولم يكن لسان الشيخ السجين يكف عن التسبيح والدعاء، وقد يرفع يديه إلى السماء، ثم يبتهل فى ضراعة عميقة، ويلح فى الدعاء، وهو واثق من أن الله لن يرد له رجاء، أو يحرمه أملاً، فدعوة المظلوم ليس بينها وبين الله حجاب، وباب الله مفتوح دائمًا، ولن يستطيع الفرنسيون أو غيرهم أن يغلقوه فى وجهه مثلما يغلقون باب الزنزانة ولو حشدوا لذلك كل ما أوتوا من قوة وبطش

وتطلع الشيخ «أبو معزى» - وهذا هو اسمه - إلى كوة صغيرة أعلى الحائط بالقرب من السقف، فلمح تباشير الفجر تنساب عبر السماء الصافية المرصعة بالنجوم - وأحس أو هكذا خيل إليه ذلك. أن نسمة رطبة حنونة تلامس وجهه، فتبعث الحيوية فى جسده، وتثير الحنين والأشجان فى روحه، وشعر بشوق جارف إلى الحرية.. إلى الدنيا الفسيحة الرحبة فى المراعى الخضراء.. أو الكهوف المبعثرة فى جبل «أوراس» حيث يختفى المكافحون الجزائريون استعدادًا للوثوب.. لكن أنى له ذلك وتلك الجدران

الصلدة، والقضبان القاسية، والجنود العتاة. . كل ذلك يقف له بالمرصاد، ويحرمه نسمة الحرية؟ . .

وطفرت من عيني «أبو معزى» دمعة، فهمّ بتجفيفها وهو يغمغم فى انفعال واضح: «أصبحنا . . وأصبح الملك لله . . ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم». ثم اتجاه إلى دلو الماء القابع خلف باب الزنزانة، فلم يجد به قطرة واحدة، فتذكر أن السجان قد أمر أن يحرمه من الماء تلك الليلة كوسيلة من وسائل الضغط والتعذيب الكثيرة، لعل الشيخ ينزل على رأيهم، ويدلى لهم بالاعترافات التى يطلبونها منه . . وعاد الشيخ أدراجه إلى مكانه الذى يتربع فيه، ثم انحنى على أرض الزنزانة، وهو يبسط كفيه، ويضرب بهما التراب قائلاً بينه وبين نفسه: ﴿ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا ﴾ [المائدة: ٦]. .

وجلس «أبو معزى» بعد الصلاة ينتظر . .

الحياة فى السجن تمضى بطريقة رتيبة مملة، فبعد ساعة سوف يأتون، ويبدأون فى التحقيق معه كما حدث فى الأيام السابقة، وسوف يطبق الشيخ فمه عن الإجابة على أى سؤال مهما فعلوا، فليقتلعوا بعض الشعرات من لحيته، وليلكزوه بمؤخرة بنادقهم الصلبة، وأحذيتهم التى لا ترحم. . وكذلك ضرب السياط لن يجعله ينطق بكلمة واحدة. . حقًا إن السوط يؤلمه ويحنقه فى الوقت نفسه، لكنه يثير عناده، ويزيد من إصراره على عدم

الكلام « . . لكن إلى متى يطول هذا العذاب الجسدى والنفسى؟؟ لكل شيء نهاية يا أبا معزى حتى العمر له ساعة ينتهى فيها، ومن ثم يجب أن أظل رجلاً حتى النهاية، وكيف ألقى الله هزيلاً ضعيف الإيمان؟؟ وماذا يقول عنى جنودى وأتباعى الذين اتخذونى قدوة ومثالاً عندما يرون الجبل الشامخ يتحول إلى مستنقع ضحل . . عفن؟ لا . . لا إن أبا معزى سيظل رجلاً حتى آخر لحظة من عمره . . » .

وقبل أن يفيق الشيخ من مناجاته لنفسه، دفع السجان باب الزنزانة دفعة قوية، فتدفق النور إلى الداخل، وعلى التو أغمض الشيخ عينيه حتى لا يعرضهما لدفقة الضوء القوية التى لم يعهدها، ولم يمهله السجان طويلاً، فقد صاح بصوته الأجش :

- «انهض من مكانك، ماذا تنتظر؟؟ سنعرف اليوم كيف نفك عقدة لسانك، وإلا فسوف نقطعه ونستريح . . » .

وفى تثاقل وعدم اكتراث تحرك الشيخ من مكانه دون أن كلف نفسه مؤنة النظر إلى وجه السجان وسحنته الغاضبة . . وعندما بلغ باب الزنزانة، نبعت فى ذهنه خاطرة ارتاحت لها نفسه فتساءل بصوت غير مسموع : «من هذا السجان؟؟ إنه جزائرى . . مواطن مثلى . . وهو مجرد آلة تعمل فى يد الطغاة، والآلة لا قلب لها ولا عقل . . لكن هل من الممكن أن تستعيد هذه الآلة الزائفة إنسانيتها

إذا ما استيقظ قلبها وعادت إليه الحياة؟؟»، وسرعان ما انبسطت أسارير الشيخ، ونظر إلى السجان فى رقة وحنان، وقال بصوت خفيض لا يحمل حفيظة ولا تحاملاً:

- «نعمت صباحًا أيها الأخ . . ».

لم تتغير سحنة السجان، ولم تنفرج أسارير وجهه، ولكنه وقف جامدًا بضعة لحظات، ثم تلفت حوله فلم يجد أحدًا، وأقبل على الشيخ، وجذبه من كتفه فى غلظة مفتعلة، وهمس فى قلق:

- «سوف تحاكم أمام المحكمة العسكرية اليوم . . كن شجاعًا . . الجزائريون كلهم يتحدثون عن بطولتك، والمجاهدون أعادوا القسم على ألا يلقوا السلاح . . ».

وسمع السجان وقع خطوات تقترب، فاستعاد مظهره الأول، ثم دفع بأبى معزى خارج الزنزانة فى عنف وهو يصيح:

- «تحرك . . لماذا تقف هكذا جامدًا كالصنم . . أمامك دقيقتان كى تقضى حاجتك، وتشرب الماء وإن كنت لا تستحق شيئًا من هذا كله . . ».

●●●

وحار المحققون فى أمر أبى معزى . . .

ماذا يفعلون كى ينطقوا هذا الرجل، ويدفعوه إلى الكلام. . أى كلام؟ وفكروا فى أن يستحضروا أهله- زوجته وبينه- ثم يوقعوا بهم أشنع ألوان التعذيب والتنكيل، لكنهم فوجئوا بحقيقة غريبة، وهى أن الجزائريين أنفسهم لا يعرفون -على وجه الدقة- لأبى معزى أهلاً أو بيتًا، اللهم إلا كفاحه الرائع وإيمانه الذى لا يتزعزع أو يتراجع. . لقد كانت هناك «أبو معزى» آخر. . كان الجميع يعرفون أنه مراكشى الأصل، ثم قضى نحبه. . ثم فوجئ الجزائريون بعد حين بظهور من يقول إنه أبو معزى، وأنه سوف يواصل الكفاح ضد الفرنسيين حتى تتحرر الجزائر، ويتحرر المغرب العربى كله وتعلو كلمة الله. . .

وهكذا بدأ أبو معزى غامضًا فى أصله ونسبه، واضحًا كل الوضوح فى نضاله وتضحياته، وحشده للجنود، وإشعاله للمعارك الدامية الرهيبة التى أقلقت المستعمرين، وأقضت مضاجعهم، فكان لنبأ القبض على الشيخ صدى بعيد المدى فى نفوس الجميع، وأحاط اسمه بمزيد من القداسة والتعظيم، وبث فى روح أتباعه ثورة مضاعفة، وملأها إيمانًا عارمًا، فتوالت ضرباتهم المسددة، وتتابعت غزواتهم الموفقة.

●●●

وأمام المحكمة العسكرية وقف معزى فى هدوء عجيب، لقد

رفض أن ينطق أمام المحققين فى الجلسات المبدئية . . كانوا فئة من الضباط الأغرار يريدون أن ينتزعوا كل شىء بالتهديد والوعيد، ولا يتفاهمون إلا بالسياط والعنف، ويظنون أنهم قادرون على كل شىء، ومن ثم أدار الشيخ ظهره لهم، وأطبق فمه ولم يعبأ بما يفعلون . . كان يتألم لكنه كتم ألمه . . وكان يشعر أنه على وشك أن تنهار قواه، لكن قوه علوية كبرى كانت تسنده وتصلبه . . أما هذه المرة، فقد نظر إلى أعضاء المحكمة العسكرية العليا . . ثم قرر أن يتكلم .

سأله الرئيس قائلاً :

- «من أنت؟» .

- «أنا أبو معزى» .

- «يزعم البعض أنك لست هو» .

فهز الشيخ رأسه فى سخرية قائلاً :

- «وماذا يهم ذلك؟» .

فصمت رئيس المحكمة برهة ثم استأنف حديثة :

- «لماذا قاتلت فرنسا؟» .

فرد الشيخ فى بساطة مفحمة، ومنطق سهل واضح :

- «لكونها دولة باغية . . طاغية . . معتدية علينا» .

- «ألم تر أن «بعض العرب» قد انضموا إلينا؟» .

- «ربما . . لكنهم قليلو العدد . . وهؤلاء العرب قسمان : الأكثر منهم أبرياء يخافون على حياتهم، والأقلية سفلة خونة، لا يبحثون إلا عن إرضاء الحاكم مهما كان، وعن توشيح صدورهم بشريط أحمر! وإن أفلتوا من عقابنا، فلن يفلتوا من يدى الله . . » .

فاحتقن وجه الرئيس، وبان فى عينيه الغضب، وقال محتداً :

- «ماذا تنتظر منا؟» .

- «لا يهمنى ما أنتظره منكم» .

- «وإذا أطلقنا سراحك، ماذا تفعل؟» .

- «أعود للجهاد فى سبيل الله» .

- «وإذا قتلناك» .

- «سأتقدم لله ناطقًا بالشهادتين» .

- «وإذا سجناك» .

- «سأقضى أوقاتى عابداً لله، متضرعًا إليه أن ينصر العدل على الظلم . . » .

فسارع الرئيس قائلاً :

- «لماذا تكرهنا هكذا؟» .

- «منطق عجيب حقًا، لأنكم طغاة وظلمة . . أو تنتظرون أن أفرش لكم الطريق بالورود، وأقول لكم أيها اللصوص هذا بيتى اسرقوه . . وها هى رقبتى اقطعوها، وها هى قريتى عيثوا فيها الفساد؟» .

- «كذبت أيها الشيخ . . نحن دعاة نور . . ومعرفة وعدل» .

- «ها . . ها . . ها . . أيها الأنبياء يا قاتلى الأطفال والأبرياء . . ويا مخربى الديار . . إننا لانؤمن بكم . . إذ ليس للشياطين رسالة نور ومعرفة وعدل» .

واستشاط الرئيس غضبًا، وبعد أن رفعت الجلسة عاد الشيخ إلى سجنه، كانت ظلال الموت تبسط رواقها الأسود فوق رأسه، وكان الغد يحمل فى طياته الكثير بالنسبة له، ولمستقبله ومصيره .

ودلف الشيخ إلى زنزانته، فوجدها كما هى سوداء صامتة، فأعادت لذهنه صورة القبر الذى يريد الفرنسيون أن يدفنوه فيه عنوة وقهرًا، وسرعان ما أضاءت فى ذهنه حقيقة لامعة وضاءة حقيقة كبرى . . يدركها هو بالذات أكثر من غيره ألا وهى : ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا ﴾ [التوبة : ٥١] تلفظ بها الشيخ وعيناه مغروقتان بالدموع، ثم انصفق باب الزنزانة ولم يعد هناك منفذ يطل على

العالم الخارجى، إلا تلك الكوة الموجودة قرب السقف، وتلفت الشيخ إلى دلو الماء، فوجده جافًا فارغًا، لم تمتد إليه يد بملء أو تنظيف . . .

ووجد كسرات من خبز جاف، ملقاة بطريقة لا تخلو من الإهمال وعدم الاكتراث، فتناول لقيمات منها، وحاول أن ينفض عنها التراب العالق بها، ولم يكد يضعها فى فمه، حتى تناهى إلى سمعه صوت أحد المسجونين الأحرار، وهو يذوق أقسى ألوان العذاب، ويصرخ بصوت جهير . . «يا رب . . يا رب»، فما كان من الشيخ إلا أن نحى اللقيمات الجافة عنه، ووضعها إلى جواره، ثم رفع يديه إلى السماء فى ضراعة كلها حرارة وإيمان . . وبات جليًا أن الإعدام هو الحكم المتنظر . .

شىء رهيب حقًا . .

كثيرًا ما تعرض أبو معزى للموت، وهو يخوض المعارك الصاخية، لم يكن آنذاك يفكر فى موت أو حياة . . كان فقط يريد النصر أو الاستشهاد، أما الوضع اليوم فهو مختلف تمام الاختلاف . . إن أبا معزى يفكر بالرغم منه . . يفكر فى ماضيه، هل وفق فيه أم لم يوفق، ويفكر فى خطته فى الحياة . . هل أصاب أم أخطأ . . هل أرضى الله أم أسخطه؟؟ أيساق إلى الموت فى ساعة معينة؛ ويوضع على المقصلة بأيد فرنسية . . أيد لعينة، ويسلم

الروح دونما حركة أو ثورة أو صراع فى ميدان مكشوف؟؟ وابتسم الشيخ لهذه الخواطر المتلاحقة المتضارية التى تزحف إلى رأسه، وبدا له أن طول السهر، وكثرة الإنهاك الفكرى، والإرهاق الجسمانى والنفسى، أو شكت أن تسلمه إلى ما لا طائل تحته من الأفكار.. ولذا غمغم فى ثقة:

- «الموت هو الموت.. والمعركة واحدة.. والسجن وأرض المعركة كلاهما ميدان واحد..».

●●●

وفى اليوم التالى افتتحت الجلسة، وثار الجدل من جديد، وأخيراً قال القاضى فى صبر نافذ:

- «ألا تخبرنا عمن معك؟».

- «على أتم استعداد..».

فنظر إليه القاضى الفرنسى فى شك، وتفرس فيه، لعله يكشف ما وراء هذه العبارة، أمن المعقول أن يكون أبو معزى قد غير رأيه وآثر السلامة، وفكر فى أن يميط اللثام عن حركات الثوار ويفشى أسرارهم؟».

- «تكلم إذن أيها الشيخ..».

فابتسم الشيخ، وقال:

- «معى كثيرون. . هناك على سفوح الجبال، فى المراعى والكهوف. . فى شوارع المدن، وفى حوارى القرى. . وتجدونهم أيضًا فى الخيام ببطن الصحارى والوديان والواحات. . إنهم كثيرون جدًا يا سيدى القاضى، وأظنك تعرفهم، وهل تعرف وطنًا لا يثور أبناؤه إذا ما داسته أقدام الغزاة؟ ذلك منطق الأزل».

وساد المحكمة صمت رهيب، لقد أصبح الموت لأبى معزى أمرًا مؤكدًا.

ثم قال الرئيس:

- «دعنا من هذه الخطب والعبارات الرنانة، يخيل إلىّ أنك تعزى نفسك بهذه الخزعبلات وأنت على عتبة الهاوية. . إنها علامة الخوف والاستمساك بالحياة. . لكنك تعبر عن ذلك تعبيرًا عكسيًا؛ لأن فيك عنادًا وعنجهة».

قال أبو معزى:

- «لن أرد على هذا التعليق».

- «لك ذلك أيها الشيخ العنيد، لكن ألا تعرف أننا أقوى منكم؟».

- «أجل. .».

- «والنصر للأقوى أيها الشيخ. .».

- «نصر مؤقت. . غير نظيف. . ولنا عتاد أقوى من عتادكم. . ».

- «ماذا تعنى؟».

- «الحق الذى ندافع عنه، الإيمان الذى يعمر قلوبنا التضحية التى لن نكف عنها. . ».

فقال القاضى وقد ازداد حنقًا:

- «دعنا من هذه السفسطة الفارغة. . ».

وفى حجرة المداولة قال الرئيس لأعضاء المحكمة العسكرية العليا:

- «من السهل أن نحكم عليه بالإعدام، ولن نعجز عن تصيد الأدلة واصطناعها، وقد نعدمه بلا دليل على الإطلاق. . كما فعلنا مع غيره، لكن لدى وجهة نظر أخرى».

فرد عضو اليمين قائلاً:

- «ماذا تقصد؟».

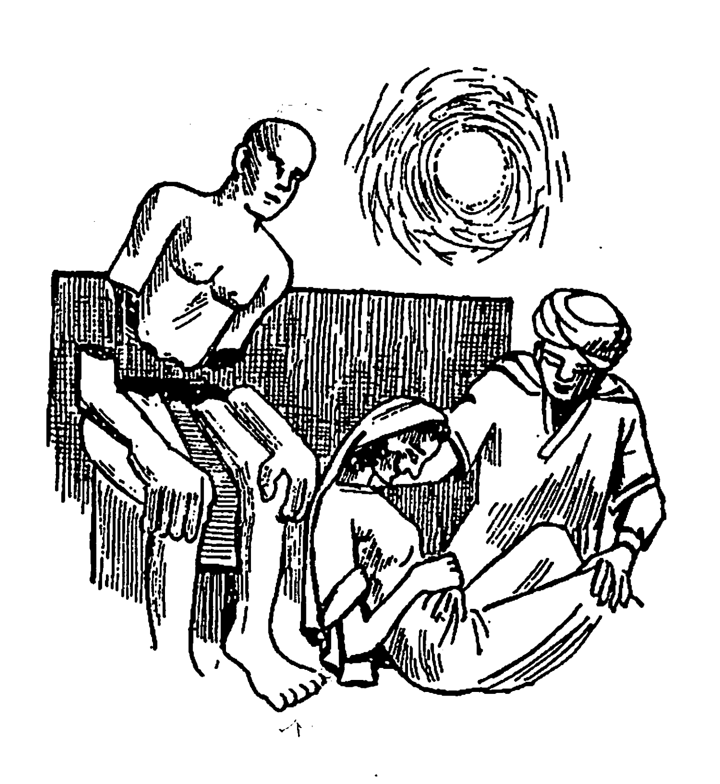
- «إن هؤلاء المسلمين يقدسون الدم، ويجعلون من شهدائهم أنصاف آلهة، ولو قتلنا أبا معزى، لجرى دمه بين الجزائريين صائحًا مستنفزًا، ولخسرنا الكثير، ولأضفنا إلى أثواب البطولة التى يرتديها

ثوبًا آخـر أعظم وأروح . . إن السـجن كـمـا يقـول الشـرقـيـون أيهـا الأصدقاء مقبرة الأحياء، فلندفن أبا معزى حيًا . . لنتركه فى السجن وكفى . . ».

- «كلا . . كلا . . إن الموت حل حاسم للخلافات السياسية، فبقاؤه حيًا معناه التهديد المتصل لنا، وتشجيع غيره على المضى فى الطريق نفسه، طريق الثورة والتمرد . . ».

كانت هذه المناقشات تحتدم بين الأعضاء الثلاثة، بعيدًا، وأبو معزى جالس فى قفصه ولا يكف عن قراءة القرآن الكريم وأخيرًا نال رأى الرئيس الأغلبيـــة، وصـــدر الحكم على أبى مــعــزى بالسجن . .

وفى طريقة إلى زنزانته كانت تتراءى له من خلال دموعه صورة المناضلين، وهم يزحفون على السفوح، وينفرون من الكهوف، ويجددون البيعة على النصر أو الموت . . أنا شيدهم الخالدة يتردد صداها قويًا ساحرًا فوق جبل «أوراس» الخضيب . . ، حيث الدم . . والنار . . والدموع . . وتاريخ يصنع من جديد . .



صانع الرجال

كان القلق يسيطر على نفسه، وكثير من الأمور الغامضة المبهمة تجتاح فؤاده، ما لذى دهاه فى تلك الليلة؟؟ إنه فتى قوى البنية متوهج الشباب، يجتاز عامه السابع عشر، وهو أوفر ما يكون صحة وسعادة، فما باله قد خاصم النوم جفنيه، ولعبت بعقله الهواجس والأوهام التى لا يستطيع أن يجد لها تفسيرًا أو تحديدًا؟؟ إنه لم يتعلّق قلبه بامرأة شغلته أو قصة حبٍ أرقت عليه هدوءه مثل غيره من الشباب.

وطال السهر بـ«سعد بن أبى وقاص» حتى ملّ، وفاض الأسى بنفسه حتى أوشك أن يبكى، وتلفت حوله باحثًا عن شىء يذهب عنه الأرق، أو يبث فى نفسه السكينة والسلام، وتذكر تلك الصلوات التى يتمتم بها قومه أمام آلهتهم الكثيرة كاللات والعزى وغيرهما.

وحاول أن يجرب، وحتى هذه لم يجد فيها الدواء الشافى، ولم تكسب ضميره المعذب قطرة واحدة من صفاء.

ودارت رأس سعد من كثرة الهواجس والتفكير حتى أصابها دوار شديد أسلمه للنوم بعد طول أرق، ولم يحس بشىء، وما هى إلا ساعة أو بعض ساعة حتى أفاق من نومه منتعشًا هادئًا وينابيع من

الراحة والرضى تتفجر فى قلبه، وإشراقات من السكينة والضياء تنسكب فى حناياه. .

ما سر ذلك الانقلاب العجيب الذى شمله؟؟ وتذكر ما رآه فى نومه. . إنها رؤيا بسيطة للغاية، لم يفهم لها مدلولاً، أو يعنى من ورائها شيئًا بعينه، لقد رأى فى منامه كأنه فى ظلمات مدلهمة، لا يكاد يميز فيها أى شيء، فالسواد يغلف الوجود من حوله، ويطمس المعالم، والضيق قد أخذ بنفسه كل مأخذ، وأحس سعد آنذاك كأن هناك أيدى خفية تطبق على عنقه، وتكتم أنفاسه، وفجأة برز فى الظلمات قمر ساطع منير، بدد جحافل الظلام، و ملأ الوجود من حوله ضياء باهرًا، ولأول وهلة شعر سعد أن ألمه وضيقه وهواجسه قد ذابت، وأن نفسه تغتسل بهذا الفيض النورانى، ورأى سعد أن القمر يتحرك فانطلق سعد خلفه مبهورًا، وكأن قوة عليا تدفعه إلى الأمام دفعًا، لكنه أبصر قومًا قد سبقوه إلى المسير، وعندما دقق النظر واقترب منهم، تبين فيهم زيدًا وعليًا وأبا بكر، فسألهم فى لهفة وشوق غامض:

- «متى وصلتم إلى هنا؟».

فقالوا: «الساعة. .».

وأفاق سعد من نومه تغمره السعادة، ويلفه الأمن والسكون وإن لم يستطع أن يجد تفسيرًا مقبولاً لما حدث له، ومن ثم لم يكد يمر

وقت قصير حتى عاوده التفكير، وأوشك أن يحل به ضيقه وأساه، ويصيح مرة أخرى نهبًا للقلق والعذاب؛ فسارع بالذهاب إلى الكعبة لعله يجد فى الطواف حولها ما يجلو صدأ روحه، وينفى عنه كربات نفسه، وحينما أبصر أبا بكر من بعيد اندفع نحوه بلا إرادة، وكأنه قد وجد شيئًا طال بحثه عليه، والتنقيب العنيف من أجله أو بمعنى أدق كان كعليل بلغ طبيبه بعد طول عناء، إحساس عجيب بهذه المعانى مجتمعه خالط روح سعد وهو يسرع إلى أبى بكر..

وأخذ يقص عليه رؤياه دون مقدمات، وأبو بكر يستمع إليه، وابتسامة رقراقة ندية تتواثب على ثغره، ثم هز أبو بكر رأسه، وقد ازداد إشراق وجهه وهو يستمع إلى سعد؛ ولم يزد على أن قال:

- «أبشر.. أبشر يا سعد».

فسارع سعد يقول وقد علته الدهشة:

- «وبماذا تبشرنى يا أبا بكر؟».

كان أبو بكر يتكلم فى ثقة ورزانة، وعيناه تنظران إلى بعيد وكأنه يسبح فى دنيا رائعة.. عالم بهيج يراه بطيات الغيب، ويخترق من أجله حجب الغموض والزمان.

بينما بقى سعد صامتًا ينظر إليه فى خشوع، وهو أشد ما يكون

لهفة إلى تكملة حديثه، وتمتم أبو بكر فى شبه ذهول، وكأنه يناجى أرواحًا شاردة:

- «ستخرج يا سعد من الظلمات إلى النور، ومن الضلال إلى الهدى، ومن عبادة الأصنام إلى دين الإسلام. . ».

وبهت سعد لسماعه هذه الكلمات، فقد بدت فى سمعه وكأنها الألغاز والأحاجى التى لا تبين معانيها، إنها كلمات يسمعها لأول مرة، لكنه كان يدرك بفطرته الصادقة التى لايلوثها زيف، أو يشوبها ميل، إنها كلمات كبيرة، تحمل معانى كبيرة، ولهذا غمغم فى ارتباك:

- «دين الإسلام؟؟ إنى أسمع منك الآن يا أبا بكر كلامًا غريبًا، فما هو الإسلام؟ وما ذلك الدين؟؟».

- «دين جديد يا سعد. . نزل على محمد الأمين. . وقد سبقك إلى القمر المنير زيد وعلى وأنا وما أظنك إلا رابعنا حسبما رأيت فى منامك. . ».

أجل، لقد وقف سعد مبهوتًا، ترن فى أذنيه عبارات أبى بكر القوية الرنانة الخطيرة، وتفعل فى نفسه فعل السحر، وصورة محمد ابن عبد الله بسمته الرائع، وشخصيته الفذة، وماضيه النظيف المشرق، وقلبه الذى شاع أريجه فى جنبات مكة وما جاورها، وطأطأ له الرجال هاماتهم فى وقار وإجلال. . أى رجل عظيم هو!!

واستطرد أبو بكر يجيب على أسئلة سعد الكثيرة، سعد الجائع إلى الحقيقة الكبرى، الظامئ لكلمة السماء إلى الأرض، الكلمة التى لا يشوبها لبث، ولا يغلفها رياء أو خداع، وكلما مضى أبو بكر قدمًا فى حديثه، ازداد سعد شوقًا ولهفة، لا يسد جوعته قول، ولا يروى ظمأه خبر، وشعر سعد أن ضجة كبرى تثور فوق الجبل، وطبولاً قوية عالية يتردد صداها فى الآفاق، ولو دقق مليًا، لأدرك حقيقة الأمر، وأيقن أنها مجرد انفعالات نفسه الفتية تضج بين جوانحه شوقًا إلى الحق.. إلى الله.. إلى النور الذى سوف يقلب شقاءه إلى سعادة، وقلقه إلى اطمئنان، وأساه إلى فرح وبهجة..

ولم يطل بهما الوقوف، إذ سرعان ما أخذه أبو بكر إلى الرسول حيث آمن بروحه وقلبه وعقله، وتلقى على يدى الرسول درس الصلاة الأول بعد أن بايعه البيعة الكبرى ورضى الإسلام دينًا، وأحس سعد وهو يزاول تلك الفعال أنه شىء آخر.. سعد جديد غير سعد القديم القلق الحائر الذى كان يترنح عبر دروب الظلام، ويغوص فى فجاج الأسى والدموع، إنه يقف إلى جوار محمد وأبى بكر وزيد وعلى، وأشرف رجالات مكة والعرب، ورأسه برأسهم، وروحه أوثق ما تكون ارتباطًا بأرواحهم، حتى لكأنهم جميعًا قد أذيبوا فى بوتقة واحدة، فتمازجت عناصرهم، وأصبحت جوهرًا واحدًا..

وعاد إلى بيته والدنيا لاتكاد تسعه من الفرح، وبدت أمام عينيه وهو فى الطريق مظاهر العظمة والجاه التى يعلو بها رجالات مكة ضربًا من الغرور الأجوف، والعبث الأحمق، وبدت آلهتهم الزائفة مجرد أحجار صماء لا معنى لها ، ولا تأثير لما أضفوه عليها من قداسة ووقار كاذبين، إنهم لا يعرفون ظلاً من الحقيقية الكبرى، أو طرفًا من المعرفة الصادقة. . أما هو فيعرف. . ولهذا بدا أمام نفسه كبيرًا. . يستحق الحياة، ويفخر بها. . .

●●●

وذات صباح كان سعد يقف بين يدى الله يؤدى الصلاة، كان غارقًا فى بحر من الخشوع والتبتل، يحرك شفتيه بكلام، ويأتى بحركات غريبة يحنى جذعه ثم يقيمه، وبعد ذلك يسجد حتى تمس جبهته الأرض، ثم يقعد، وأمه من حوله تدور وتدور، ترمق ولدها فى حسرة وأسى، لا يخالجها شك فى أن ابنها قد أصابه مس من الجن، فهى تحاول أن تحدثه- وهو على هذه الصورة- فلا يلتفت إليها، وتسأله فلا يجيب على تساؤلها، وتقبض على كتفيه وتهزه هزًا رفيقًا وعيناها مغرورقتان بالدموع، فلا يلقى إليها بالاً، فلا تجد مناصًا من أن تسيل عَبراتها فوق خديها، وهى تصيح فى رعب:

- «ماذا تفعل يا سعد؟».

- «. . . . .».

- «أجب يا حبيبى . . » .

- « . . . . » .

- «أنا أمك يا ولدى . . » .

- « . . . . » .

- «ماذا دهاك بحق اللات والعزى!! واكرباه . . وامصيبتاه . . إن سعدًا قد ذهب عقله . . وافضيحتاه بين العرب!! ماذا أقول لأهل مكة؟؟» .

كل ذلك وسعد غافل عنها حتى تنتهى صلاته، فيعود إليها هاشًا باشًا يلاطفها ويخفق عنها قلقها، ويذهب عنها ما ألمّ بها من خوف، وما خالط قلبها الواجن من رعب .

- «ما أصابنى إلا الخير يا أماه . . » .

- «وأين الخبر يا ولدى فيما تقول وتفعل؟؟ إن تلك النوبات التى تدهمك من آن لآخر، فتصمت ثم تتمتم بكلمات غامضة، وتأتى حركات مريبة عجيبة شىء يؤسف له يا سعد، لطالما قلت لك هيا معى إلى الكاهن كى ينظر فى أمرك، ويكتب لك الشفاء، لكنك تبتسم فى سخرية بلهاء، وتظننى أنا المجنونة وأنت العاقل الرزين . . » .

وابتسم سعد مرة أخرى، وجلس سعد يحدثها عن النبأ العظيم، عن الدين الجديد الذى أتى به محمد، عن الدنيا الجديدة،

والعــالـم الرائع الذى يضع لبناته الأولى على أســاس من الحب والحرية والعدل والكرامة والتعاون . . يحدثها عن جنة سوف تنهض فوق أرض الدنيا، وعن جنة أخرى بعد الممات . . فصعقت أمه لما سمعته، وشحب وجهها، وندت عنها شهقة حملتها كل ما اعتمل فى نفسها من استنكار ممزوج بالإشفاق، وقالت :

- «ماذا تقول يا سعد؟ أتترك دين آبائك وأجادك وتتبع محمداً؟ والله لئن اتبعته، وصرت على دينه لأقتلن نفسى، أتريدنى أن تعيرنى النساء بولدى الذى خالف قومه، وخرج عن ملتهم؟» .

- «أريد أن أشرح لك الأمر يا أمى» .

فقالت فى حنق :

- «أتريد أن تضلنى كما أضللت نفسك بالأمس؟» .

ألا فاعلم يا ولدى أننى بريئة منك حتى تخرج من دين محمد، ولئن بقيت عليه لأحرمن على نفسى الطعام والشراب، وأبقين فى العراء لا سقف يظلنى حتى أهلك من الحر والبر أو تعود إلى دين الآباء والأجداد، فهز سعد كتفيه فى يأس ومضى لحال سبيله، تاركًا أمه على ما هى عليه من ثورة طاغية، وانفعال زائد .

ونفذت أم سعد وعيدها وأسلمت نفسها للجوع والعطش والعراء، كانت تجربة قاسية اهتزت لها نفس سعد، وخالطها ألم ما

بعـده ألم، وأخـذت تطن فى أذنيـه كلمـات الشـمـات والملام آنًا، والسخرية والشتائم آنًا آخر، وماذا ينتظر غير ذلك، وهو الفتى الذى لم يتجاوز عامه السابع عشر، وبالرغم من ذلك يتحدى عقائد قومه، ويسفه أحلامهم، ويسخر من أفكارهم الساذجة وهم أرباب الشجاعة والفكر والشعر والتقاليد الموروثة.

وبقيت الحال هكذا أيامًا قاسية مخيفة، أمه تذوى كالغصن الذى هصرته الريح، والناس يتسلون بمنظر سعـد المتألم، وأمه الوالهـة الحزينة المعذبة. . وقوة علوية غامضة تزرع فى نفس سعد الإصرار والإيمان. . فيندفع إلى أمه وهو يذوب رقة وحنانًا، ومع ذلك فـهـو يصرخ فى عناد عجيب، ويقول لها:

- إن حياتى وحياتك لا تساوى شيئًا بجانب ما أومن به يا أماه فلو كـانت لك ألف روح، فـخـرجت واحـدة بعـد أخرى وأنا أنظر إليك ما تركت دينى أبدًا. .

وليس معنى ذلك أن أتنكر لك يا أمى أو أجحد فضلك وإنما أنت الحب والحنان. . ولك الطاعة. . إلا فى شىء واحد. . كلمة الله. إنه فوق القرابة. . والمجاملات. . وكل متاع الحياة ومظاهرها. .

ولم تجـد الأم مناصًا من أن ترجع عن عزمهـا، وتحنى رأسـهـا، وفى عينيها دموع- أمام قوة عجيبة صنعت من ابنها رجلاً. . لا ككل الرجال.



العرش المحطم

«واكرباه يا سعدان . .

أهكذا الدنيا لاتبتسم إلا لتكشر عن أنياب الغدر والخديعة ولا تبدى لونًا من ألوان الرضى والإقبال إلا لتبدله بالجفوة والمرارة؟» .

كان سعدان يمضى فى طريقة كالحالم ، وهذه العبارات تطن فى أذنيه ، وتسرى فى كيانه كله ، فتهزه هزًا عنيفًا مؤلمًا ، وما هى إلا صدى لما يحتدم فى نفسه ، ويثور فى ضميره .

وانطلق سعدان فى طريقة من شارع لآخر غير عابئ بما يدور حواليه من حركة واضطراب تموج بهما شوارع الأستانة عاصمة الخلافة العثمانية ، فليس الناس فى نظره إلا قطيعًا ضالاً ، أو دميًا تحركها يد الطغيان ، ومضى سعدان ساهمًا واجمًا ، وقد اكتسى وجهه بغلالة من الشحوب والحزن ، أخفت خلفها نضرة شبابه ، وميعه صباه ، ووسامة خلقته ، وتعبيرات وجهه قد بانت فيها تقلصات مخيفة تنبى عن الثورة والمقت واليأس المميت .

ووصل سعدان إلى بيته وهو كالمسحور ، فولج الباب واندفع إلى الداخل دون أن يكترث بشيء حتى إذا بلغ باب حجرته ركله بقدمه ركلة قوية فأحدث ضجيجًا أثار الفزع فى قلب كل من بالبيت ووقف داخل حجرته مذهولاً ، ثم ألقى بجسده المنهوك

على مقعد قريب منه ، وانحنى بوجهه المكفهر ، وعينيه المحتقنتين على منضدة أمامه ، وفى هذه اللحظة أقبلت غادة هيفاء القد ، وسيمة التقاطيع تلبس ثوبًا حريرًا أخضر ، ثم هتفت بنبراتها الرقيقة الوالهة :

- «ما لمولاى الحبيب قد أخفى وجهه كذا عنا؟ لا أراك الله بأسًا يا مولاى» .

لكن ليلى تلك الجارية الحسناء لم تتلق جوابًا على استفسارها فهالها خروج سيدها عن مألوف عاداته ، وسرعان ما غربت الابتسامة من فوق شفتيها ، فتقدمت نحوه فى لهفة وقلق ، ثم قالت :

- «ألا ترد يا مولاى؟ . . » .

فلم يلتفت إليها ، وظل مكبًا كما هو لا يتململ ، أما هى فقد اقتربت منه ، وتسللت يدها إلى رأسه لتربت عليه فى عطف وتودد وعيناها الواسعتان تشعان بالإشفاق والحنان ، لكنه فاجأها بدفعة قوية من يده ، فقذفت بها عند مدخل الحجرة حيث ارتمت هناك خائفة هالعة ، وتحركت شفتا سعدان المطبقتان أخيرًا ليقول :

- «اذهبى بعيدًا عنى أيتها البلهاء المأفونة . . » .

ولما رأت ليلى الخواطر السوداء تلوح فى عينيه ، لمَّت أطراف ثوبها فى عجلة وولت هاربة .

وأقبلت أم سعدان مهرولة، يكللها تاج المشيب، ثم تقدمت نحو ولدها متلهفة:

- «ماذا بك يا ولدى؟؟».

فحملق فيها سعدان مشدوهًا، ثم أمسك بيدها الضعيفة الواهنة وجذبها إليه فى غلظة لم تألفها فيه من قبل، وهزها هزًا عنيفًا، وقال لها:

- «ألا تعلمين؟؟ لقد قتلوه، قتله الأوغاد الشياطين».

وفغرت الأم فاهًا، لكنها تمالكت نفسها وقالت:

- «قتلوا مَنْ؟؟».

- «قتلوا أبى.. ذبحوه كما تذبح الشاه، ثم بقروا بطنه».

وكانت الأم قد فقدت توازنها، وغلبت عليها الصدمة المباغتة فوقعت على الأرض مغيشًا عليها؛ وأفاقت الأم من غيبوبتها لترى كل من بالبيت من خدم وعبيد يعولون ويبكون، وليلى بينهم تنشج نشيجًا حزينًا بعد أن جاء الخبر بمصرع سيد البيت الكبير ولى نعمتهم، واتجهت الأم ببصرها إلى السماء وهتفت:

- «إنا لله وإنا إليه راجعون».

ومرت ساعات قبل أن يؤوب سعدان إلى رشده، وبعد ذلك ترك

العنان لدموعه كى تسطر آيات اللوعة والرثاء لأبيه الراحل الشهيد. . حتى إذا انتهى من نوبة البكاء التى دهمته شرد ببصره، وقال:

- «قتلك خليفة المسلمين يا أبى. . ظل الله؟ يا للمهزلة!! إنه ظل الله فى الأرض كما يزعمون؛ حتى لكأن الله لم يلق ظله بين الناس إلا فى صورة ذلك الطاغية السلطان عبد الحميد. . ».

وهمست الأم فى صوت باكٍ كسير:

- «له الويل. . هل نصبه الله خليفة ليسفك الدماء ويرمل النساء؟؟».

- «وهل الحكم اليوم يا أماه إلا القسوة والطغيان وإرهاق الأرواح؟».

وصرخت الأم والدموع تغرق خديها:

- «عليكم اللعنة يا أحفاد آل عثمان. . صرعتم الفضائل. وبددتم التراث. . عليكم اللعنة يا عبيد الشهوات. . أيتها الظلال الكئيبة على الأرض. . ».

●●●

كان الشيخ الشهيد إبراهيم والد سعدان من خيرة علماء الأستانة، وعلى الرغم من حاله المتواضع، وعلمه الغزير فقد كان قنوعًا كريم النفس، يعف عن الحرام، ولا يتزلف إلى أرباب

السلطان فعاش بين معارفه موضع الحب والتقدير، ولم يكن يبغى من دنياه إلا أن يحفظ الله له زوجه التقية الطاهرة، وفلذة كبده سعدان وتلك الجارية الجميلة ليلى التى أعتقها على أن يزوجها قريبًا من وحيده سعدان. . شيء واحد كان يكدر صفو الشيخ؛ لأن هذا الشيء فى نظره كل شيء، ولا غنى عنه للإنسان المؤمن، ولا سيما إذا كان عالمًا كبيرًا مثل الشيخ إبراهيم، إذ كان يشعر أن عليه تبعة ورسالة يجب أن يؤديها؛ لأنه سيحاسب عليها أمام الله. .

فالسلطان عبد الحميد حاكم مطلق فى البلاد، ورغم دهائه وذكائه إلا أنه كان قاسيًا متحجر القلب لا يرحم، والأدهى من ذلك أن كل من حوله من وزراء وعلماء وقواد قد تمادوا فى انحرافهم، ولطالما فكر الشيخ إبراهيم فى ماضى المسلمين الزاهر وحاضرهم المؤلم فهاله الفرق الشاسع، وكثيراً ما كان يصرح بما يعتمل فى نفسه لمستمعى دروسه في المسجد. . فحمل الجواسيس المنبثون فى كل مكان نبأ الشيخ إبراهيم إلى السلطان، وبالغوا فى حديثهم عن الشيخ وعن دروسه وأفكاره التى تهدد أمن البلاد، ورغم أن الشيخ أبعد ما يكون عن التآمر إلا أن تهويل الأمر لدى السلطان ثم توجسه خيفة من أدنى الحركات التحريرية جعله ينظر إلى الأمر بخوف وحذر. .

وحينما سأل السلطان من حوله من العلماء عن الشيخ إبراهيم سارع أحدهم قائلاً:

- «الحق يا مولاى أن أمثال الشيخ إبراهيم من المتحذلقين ما هم إلا عقبة كؤود فى طريق كل تقدم، ونغمة شاذة تؤذى السمع . . » .

وتجسم الوهم عند السلطان الطاغية، وفكر قليلاً ثم قال :

- «حسن . . سنبعث فى طلب الشيخ فى الغد لنسمع ما يقول»، وفى اليوم التالى أقبل الشيخ إبراهيم تحيط به كوكبة من عساكر السلطان، ليقابله فى أمر ذى بال، واقتيد الشيخ إلى السلطان بالداخل، بينما بقى ابنه سعدان فى الخارج، ورأى الشيخ خليفة المسلمين محاطًا بالأبهة والعظمة، وحوله بعض العلماء الرسميين يجلسون فى خشوع ورهبة، وكأنهم فئران مذعورة، فقدم الشيخ للسلطان ولهم فروض الطاعة والولاء، وحياهم بتحية الإسلام، فلم يسمع غير صدى تحيته، وأطل بنظراته ليرى عبد الحميد مكفهر الوجه، غاضب النظرات، ثم سمعه يصيح فى وجهه :

- «ما الذى أغضبك منا حتى تهيج علينا شعور الدهماء، وتثير من حولنا حقد الناس؟» .

- «عفوًا يا مولاى . . إنى لم آت ما يعتبر جرمًا . . » .

فاستشاط السلطان غضبًا :

- «هذا هراء . . إنك تخدعنا، وتكذب علينا، تتنكر لليد التى تتقدم لكم بالإنعام . . ألم تتهمنا بالاستبداد والتعسف أيها الشيخ المضلل؟» .

واستبد بالسلطان السخط، فتناول أصيصًا زجاجيًا كان أمامه وقذف به فى وجه الشيخ، فشج رأسه وأسال دمه، دون أن يتفوه أحد الجالسين بكلمة، ورشق الشيخ الجريح بنظرات شرسة متوحشة، وزمجر قائلاً:

- «إنكم لا تعرفون للأدب حدودًا؛ وتطلقون ألسنتكم بالكلام الفارغ، وتدسون أنوفكم فيما لا يعنيكم، لكننى أعرف كيف أؤدب المارقين منكم، وأقطع ألسنتكم بحد سيفى».

وتمتم الحاضرون فى وجل:

- «أجل.. أجل يا مولانا أيدك الله بروحه..».

أما الشيخ إبراهيم فقد غلت الدماء فى عروقه، واجتاحت كيانه ثورة عارمة وطرقت أذنيه كلمات كأنها تهبط عليه من السماء «الساكت عن الحق شيطان أخرس أيها الشيخ المؤمن.. ما الحياة؟ وما الموت؟ وما الدنيا بأسرها إزاء كلمة الحق سوى شيء تافه. تكلم تكلم بما يرضى الله ورسوله» وأفلت الزمام من يد الشيخ فأرسل كلمات محمومة كأنها الشواظ:

- «إن ملكًا هذا شأنه، وتلك سياسته، مصيره إلى الزوال ولن تجدى سطوة، أو تنفع قوة، أو تحميه من المصير المحتوم أية قوة أو عصبية آثمة من العلماء الضعفاء».

وعقدت الدهشة لسان السلطان، بينما واصل الشيخ كلامه :

- «لقد أصبح الإسلام رسومًا بالية وصارت المثل والمبادئ ضربًا من الهذيان، وأصبح الضحايا المظلومون قناطر للمآرب والمنافع، ولهذا تناوشتنا الدول، وحاكت لنا المؤامرات، وشجعت المحافل الماسونية، والجمعيات السرية التى تعمل للقضاء على وحدة الأمة الإسلامية، فالويل . . الويل لكل مفرط فى حق الدين والوطن» .

وما أن انتهى تأثير المباغتة، حتى أطبق الحراس على الشيخ وأغلقوا فمه، والخليفة يهتف بهم :

- «اقتلوه . . اقتلوه شر قتلة . . مثلوا به أشنع تمثيل . . » .

وهكذا ازداد عدد الضحايا واحدًا، الضحايا الذين كانوا يلقون فى عرض «البسفور» ويغتالون فى جنح الظلام، أو يتركون ليأكلهم الجوع والحرمان والعذاب وراء القضبان داخل السجون .

وهكذا عاد سعدان إلى أمه هائجًا مرتاعًا، حاملاً إليها أسوأ خبر تلقته فى حياتها .

وتناقلت الأفواه الهامسة هذا الخبر فى كل مكان من أنحاء الأستانة، أما سعدان فقد تمادى فى أحزانه، وصورة أبيه الشهيد لاتفارق خياله، فثوى فى بيته لا يغادره أبدًا، وعافت نفسه الطعام والشراب إلا القليل الذى لا يكاد يقيم الأود، وأهمل شعر لحيته

ورأسه، وتركه يطول ويتهدل فى غير نظام، وأصبحت نظراته دائمة الشرود والذهول، وكثيراً ما كان يهب فى جوف الليل مذعوراً، ويصيح بأعلى صوته قائلاً:

- «قتلوه.. قتلوه.. أبى ذبحوه كما تذبح الشاة».

فتسارع إليه أمه ضارعة:

- «هكذا يودع الشهداء يا ولدى؟؟ وماذا يجدى البكاء والنحيب يا سعدان؟؟ لقد ذهب أبوك إلى لقاء ربه شهيداً كريمًا، فنعم الطريق اختار».

فيرد عليها مهتاجًا:

- «الثأر.. الثأر.. لن يضيع دم أبى هدراً..».

وعاش سعدان لا يهتف إلا بالثأر فى ليله ونهاره، د'ن الثأر يدفعه إلى الأمام، لكن ضعفه وعجزه يجرانه إلى الوراء، ، من سعدان إذا ما قيس بالسلطان الممجد صاحب اللواء الأكبر وظل 'لله فى الأرض؟.

وظلت صورة أبيه الشهيد تطالعه فى يقظته ومنامه وتلح عليه إلحاحًا لايجد منه مهربًا، حتى أصاب عقله الخلل، والتبثت الأفكار فى مخه المشوش، فكان يخرج أمام بيته فى غير مبالاة؛ ويلقى بالكلام على عواهنه، ويقذف باللعنات على من قتلوا أباه، وجهه

الشاحب يفيض بالحزن وينطق بالمرارة، ونظراته البلهاء بالخيال والحسرة والجنون، والناس يمرون به مشفقين، يرثون لحاله ولحال أمه التى تتعلق بأهدابه محاولة تهدئته وإعادته إلى داخل البيت ولكن كيف للمجنون أن يفهم ضراعة أو يعى توسلات الحزانى المتعبين؟».

وذات ليلة حالكة السواد سمعت الأم الساهدة حركات غريبة لدى باب البيت، ثم ازدادت الحركة وضوحًا، فاستطاعت أن تميز وقع الأحذية الثقيلة، وما هى إلا دقائق قليلة حتى رجعوا من حيث أتوا ومعهم سعدان.. سعدان المجنون.. ويداه مكبلتان بالحديد ونظراته البلهاء هى هى لم تتغير.. وشعره الكث على حاله من التهدل والإهمال.. ولم يبد على سعدان أنه يدرك لهذا الأمر معنى حتى أن أمه حينما بكت وتوسلت، لم يفهم مغزى ذلك، وليلى هى الأخرى عندما أجشهت بالبكاء لم يفكر فى سر بكائها، بل كان يبتسم ابتسامة بلهاء قاسية.

وأخذوا سعدان بعيدًا إلى الوادى الرهيب، حتى إذا ما صرخ أو استنزل اللعنات على السلطان لم يسمعه أحد، وقذفوا به فى حجرة مظلمة رطبة من حجرات السجن العتيق، كما قذفوا بالآف غيره من قبل، فابتلعهم كالوحش الجائع الذى لا يشبع.

●●●

جلست الأم كعادتها، وقد ازداد شعرها بياضًا، وخبا بريق

الأمل والحياة فى عينيها اللتين أضناهما البكاء الطويل، بينما قبعت ليلى إلى جوارها حزينة مكتئبة، واتجهت الأم ببصرها إلى السماء بعد أن ضاقت بها الأرض شاكية إلى الله أمر زوجها البرىء الراحل، وابنها الحى الميت، وذلك البلاء الذى شمل الأسرة كلها بوشاحه الأسود القائم، وهتفت بصوت جريح ملتاع:

- «اللهم أنت المنتقم الجبار.. اللهم خدنى إليك فقد فاضت كأسى ولن أعد أحتمل.. يا إلهى..».

لكن الله لم يشأ أن يستجيب لدعائها إلا بعد أن تلقت السهم الأخير، حينما عاد إليها أقوام غرباء، حاملين فى صندوق خشبى «شيئًا» ملفوفًا فى أقمشة بيضاء.. وما هى إلا دقائق استلزمتها مراسيم الوداع، ثم حملوا بعدها جثة سعدان- الشهيد الثانى- إلى مقره الأخير بعد أن أنهكته العلة، وهدته الآلام داخل الأسوار وحطم الطغيان آماله ومستقبله..

●●●

ومرت سنوات قلائل، كانت كلها دماء وقلاقل، انهار حكم العثمان على أثرها إلى الأبد وقذف بعبد الحميد بعيدًا عن كرسى الخلافة.. وتحطم العرش العريق الذى ملأ الدنيا والتاريخ ضجيجًا لا ينتهى أبد الدهر.



ابن سبيل

لم تكن الشمس قد أشرقت بعد، وتباشير النهار أخذت تزحف من الأفق الشرقى، وقليل من الضوء الخافت بدأ يتسلل عبر ثغرات النوافذ والأبواب، وفتح الشاعر الكبير «جرير» عينيه، فوثب على الفور واقفًا، وقال وهو يلكز زوجته:

- «ويحك يا امرأة! لقد أشرق النهار وكان يجب أن تكون راحلتى فى طريقها الآن إلى مركز الخليفة الجديد، عمر بن عبد العزيز..».

فقالت زوجته وهى تتثاءب:

- «صدقت.. إنها فرصة العمر، وما كل يوم يولى خليفة جديد.. هيه هات أوزانك وقوافيك، وتخير كلماتك، فعمر بن عبد العزيز ليس بالرجل الهين.. وقد سمعت أن رأيه فى الشعراء لا يسر أحدًا منهم، وما ظنك برجل استقبل الخلافة بالدموع وتولى كرسيها زاهدًا فيها؟؟».

وهتف جرير بأحد خدامه كى يعد له ماء الغسيل، ثم يجهز له الطعام والشراب، وما أن اطمأن إلى ذلك حتى التفت إلى زوجته قائلاً:

- «لا أظن أن خليفة أو أميرًا من الأمراء يستطيع أن يعادى الشعر إنه لسان الدولة وسجلها المجيد وسيف بتار فى معارك السياسة الكبرى..».

فأجابت زوجته مشفقة :

- «لا أظنه يعادى الشعر فعلاً، لكنه ينزله منزلته».

- «ماذا تعنين؟؟».

- «أعنى أن الشعر يد تمتد تطلب المال.. الثمن.. وعمر بن عبد العزيز رجل من رجال الله، يفعل ما يفعل لوجه الخير، لقد دالت دولة الشعراء، وستقوم على أنقاضها دولة العلماء..».

فقال جرير محتدًا :

- «ويلك يا جاهلة!! العرب هم الشعر، ولو مات الشعر لدالت دولتنا.. ذلك هو منطق التاريخ والحوادث..».

ثم ضحكت زوجته، ودفعته دفعًا رقيقًا فى دلال وقالت :

- «أوه.. إنك تأخذ الأمر مأخذ الجد، وما قصدت إلا إثارتك، حتى تبدأ رحلتك نشطًا مرحًا.. ومن ثم يجب أن تفكر كثيرًا، وتقدح زناد فكرك، إن عمر بن عبد العزيز رجل كبير، وشعرك فيه يجب أن يكون كبيرًا مثله يا زوجى العزيز..».

فقال وقد غزته موجة من الكبرياء مترنمًا ببيت خالد له من الشعر :

- «ألستم خير من ركب المطايا

وأندى العالمين بطون راح؟».

- «أجل.. أجل يا جرير..».

- «نحن لها يا ساذجة . . إن زوجك من زمن بعيد أصبح سيد الشعراء وأميرهم، وحامل لواء الفخار والمجد بينهم . . فطيبى نفسًا . . إلى اللقاء . . » .

وأخذ جرير فيما بينه وبين نفسه يفكر فى قول زوجته عن عمر، ويفكر فيما يرويه الناس عنه، ثم يفكر أخيرًا فى الأزمة المالية التى دهمته، فاضطر إلى ضغط مصروفاته، متوجسًا خيفة من المستقبل، بل أنه أرغم نفسه إرغامًا على مديح أقوام ليسوا فى منزلة كبرى بالنسبة للخلفاء والأمراء الذين كال لهم المديح، بل أنه فى قرارة نفسه كان يدرك أن هؤلاء الأقوام الأصاغر أجدر بالهجاء لا المديح، لكن ماذا يفعل والحاجه لا ترحم، ومظاهر الترف التى يحافظ عليها- كشاعر كبير- تدفعه دفعًا فى كثير من الأحيان لأن يختلق المديح، ويصطنع آيات البطولة ويضفيها على أقوام ليسوا أهلاً لها؟؟ .

أجل . . إن أزمته المادية ما برحت مستحكمة، فالخليفة السابق ظل مريضًا لفترة ليست بالقصيرة . والهدايا والمنح والجوائز التى كان يغدقها على الشعراء قد انخفض معدلها . والمال شح فى جيبه، وتولية خليفة جديد فرصة يجب ألا تفلت من يده وإذا لم ينل جوائز شعره فى حفلات التولية فهل ينالها فى مواكب الرثاء والحزن والدموع، والقلوب المكلومة لا تهزها أريحية إحسان أو تقدير لفن؟؟ كلا . . كلا . . لن يكرن عمر بن عبد العزيز كما زعموا،

فقد حكم الحجاز من قبل بالعدل والبر، وملأ الآفاق عدلاً ونورًا، وعقد مجالس الشورى، وسعى إلى العلماء فى ديارهم وأبى أن يسعوا هم إليه، وهاجم الطغاة والطغيان دون أن يخاف بطش خليفة، أو كيد حقود أو تهديد طامع، مثل هذا الرجل لا يظلم أحدًا، وبالتالى لن يظلم الشعراء..

●●●

وانطلق ركب جرير إلى حيث يقيم الخليفة الجديد، وخفقات الأمل الحلو تتراقص بين جوانحه، ومن آن لآخر يهزه إلهام الشعر، ويبعث ما يشبه القشعريرة أو الرعشة فى جسده، فينساب الشعر طلقًا جزلاً رصينًا، ممتدحًا بفارس بنى أمية، وفتاها العادل، ورجلها الأول: عمر بن عبد العزيز.

وعلى طول الطريق كانت الأنباء تترى، وروايات عجيبة تشبه الأساطير يتردد صداها فى كل مكان وتصرفات لا يكاد يصدقها العقل تتناثر فى جميع الأنحاء، وهتاف باسم عمر يملأ الآفاق.

ولعبت الهواجس برأس «جرير» حينما قال له أحد الأعراب:

- «ويلك يا جرير!! لن تعود من مركز الخلافة إلا بخفى حنين، لقد قال الخليفة فى الأيام الأولى من عهده حين جمع الناس: «أما بعد. إن خلفاء بنى أمية قد كانوا أعطونا عطايا، ما كان يصح لنا أن

نأخذها، وما كان يصح لهم أن يعطونا إياها، وإنى محاسب عليها اليوم نفسى وأهل بيتى . . » فماذا نرجو من رجل مثله يا جرير؟ لقد انتزع جواهر زوجته وردها إلى بيت المال، ورد إلى نصرانى أرضًا قد اغتصبها أحد أشراف بنى أمية، وصادر كثيرًا من أملاك أولاد عمه . . ».

فقال جرير فى شبه ضيق :

- «هذا يرفعه فى عيوننا، ويجعلنا أكثر أملاً فيه، وتعلقًا به . . »

ورغم بذور الشك التى أخذت تنمو فى نفس جرير إلا أنه سار فى طريقه، لا يراده راد، ولا يصرفه عن غايته شيء، إن كل هذه الأخبار الطوال التى يسمعها عن عمر لا تزيده إلا إعجابًا به وتقديراً له، بل ولا تزيد مادته الشعرية إلا ثراء وجمالاً، وهل يضايقه أن يكون الخليفة عادلاً . . بارًا . . زاهدًا فى عبث الدنيا ومتاعها؟؟ ليس الأمر كما يصوره الناس ويبالغون فيه، إن عمر صاحب العقل الكبير، والزهد الصادق، والخلق السمح لم يتنكر للشعر والشعراء، ولا ينظر إليهم كفئة من المعطلين المتسولين . .

وما أن وصل جرير إلى بيت الخلافة حتى راعه ما رأى، ليست هناك جياد مسرجة، والحراس والشرطة لا يملأون المكان، ولا يثيرون فيه الضجة أو الرهبة الجديرة بحاكم كبير، ولا أثر لجوقة العازفين بالمزامير، أو الضاربين على الطبول، والجوارى لا ينظرن

من خلال النوافذ، ولا تنبعث من هناك الأنغام الحالمة، التى تنبى عن الرفاهية والمتعة والنعيم، إن جريرًا لا يرى بالباب سوى الحاجب، ولا يبصر بالداخل إلا «مزاحم» - خادم الخليفة- وقليل من الرجال والعلماء، يتحركون فى هدوء بلا مظاهر ولا مواكب . . حتى لكأن الأمر لا يعدو عن كونه ذهاب خليفة، ومجىء خليفة . . رجل مكان رجل . . الدنيا انتقلت من مكان إلى مكان . . هذا أصدق تعبير كان يتصوره جرير حينما سمع أن الخلافة انتقلت إلى يد عمر بن عبد العزيز . .

وطرق جرير الباب . .

وجاء صوت الحاجب:

- «إلى أين يا أخا العرب؟».

فقال جرير فى اعتداد:

- «أنا جرير . . جئت لمدح الخليفة . .».

فقال الحاجب:

- «الخليفة لا يسمح بدخول الشعراء ولا يقابلهم . .».

- «عجبًا!! كيف تقول هذا الكلام؟».

ثم استطرد جرير:

- «هذا أمر ما سمعنا به من قبل . . » .

- «إن الخليفة ينظر فى مظالم الناس ، ويدير شؤونهم ، وأظن أن ذلك أولى من سماعه لقصائد الثناء والمديح ، وتقبل التهانى . . » .

فقال جرير ، وقد أصيب بخيبة أمل كبرى :

- «يستطيع الخليفة أن يفعل الأمرين ، ينظر المظالم ثم يسمع الشعر . . » .

فقال الحاجب ساخرًا :

- «لن يسمع الخليفة جديداً . . كلامكم رائع وجميل أيها الشعراء لكنكم تقولونه للجميع . . اليوم وغد . . » .

فأجاب جرير ببساطة :

- «لأن الناس يريدون أن يسمعوا شعرنا ، والخلفاء كذلك . . أصبح الشعر ضرورة من ضرورات حياتنا والخروج عن هذا العرف هو الغريب حقًا . . » .

وشعر بالألم الشديد يعتصر فؤاده ، إن معنى ذلك أن يشقى الشعر والشعراء فى أيام العدل والحرية والسلام .

ومعنى ذلك أن يحمل الشعراء معاولهم ، ويحرثون الأرض ، ويسوقون الأغنام ، أو يحملون السلع ويتجرون فى الأسواق ،

ويخرجون من حياة الجوائز والعطايا التى ألفوها . . ولم يفقد جرير الأمل كلية ، بل ظل يتردد على مقر الخلافة طوال شهر بأكمله دون أن يحظى بلقاء الخليفة الجديد . .

وابتسم له الحظ حين رأى أحد الفقهاء يتجه صوب الباب قاصداً الخليفة ، وجرير يعلم منزلة الفقهاء لدى عمر ، فاندفع جرير إليه وأخذ يرجوه ويتوسل إليه كى يمهد له السبيل ، ويأخذ بيده للخليفة حتى يمدحه ، وأمسك جرير بكم الفقيه ، وقال منشداً :

يا أيها القارئ المرخى عمامته

هذا زمانك، إنى قد مضى زمنى

أبلغ خليفتنا إن كنت لاقيه

أنى لدى الباب كالمشدود فى قرن

وابتسم الفقيه ، ووعد جريراً خيراً ، ثم ذهب إلى الخليفة يستأذن له ، وقال الفقيه لعمر :

- «كان النبى ﷺ يمدحه الشعراء ويعطيهم الصّلات فلا تخرج عما فعله رسول الله يا عمر . . » .

وقبل عمر ، لكنه اشترط على جرير ألا يقول إلا حقًا . .

وكان هذا الشرط قاسيًا بالنسبة لجرير ، إن الشعر تحليق ومبالغة وخيال جميل ، وإذا خرج عن ذلك . . عن أكاذيبه الحلوة المباحة ،

وانفعالاته المهمومة لن يكون شعراً، وماذا يفعل؟؟ هذه فرصته الوحيدة. . لينس القصائد الطوال التى أعدها فى الطريق، ويتجاهل روائع نظمه التى أخذ يحلم بها فى لياليه السابقة وليبدأ من جديد، وليقل شيئًا. . أى شىء يليق بمقام الخليفة ولا يكون إلا حقًا، وترنم جرير:

إن الذى بعث النبى محمداً

جعل الخلافة فى إمام عادل

والله أنزل فى الكتاب فريضة

لابن السبيل وللفقير العائل

إنى لأرجو منك خيراً عاجلاً

والنفس مولعة بحب العاجل

فقال عمر:

- «يا جرير. . أنت من أبناء المهاجرين أم من أبناء الأنصار فتعرف لهم حقهم؟ أم من فقراء المسلمين فتأمر صاحب الصدقات أن يصلك بما يصل به قومك؟؟ أم ابن سبيل فلك عندنا ما لأبناء السبيل من زاد ونفقة تبلغك بلادك وركوبه تحملك؟».

وطأطأ جرير رأسه فى أسى. . إنه أمام رجل لا يريد أن يشترى

الكلمات، ولا تهن أريحيته الألفاظ الضخمة والمديح الرصين، ولا يريد أن يسمع إلا الحقيقة حتى فى الشعر . . ولا يؤمن باحتراف الفن بل يعتبره هواية بلا هواية بلا ثمن . .

وهمس جرير فى صوت خفيض يائس :

- «أنا ابن سبيل . . يا سيدى الخليفة . . » .

- «لنعطك ما نعطى لابن السبيل . . »، وحينما خرج «جرير» تلقفه الشعراء المنتظرون لدى الباب وكلهم لهفة إلى ما فعل جرير مع الخليفة وما أعطاه، فهز جرير رأسه ثم قال :

- «هذا رجل يعطى الفقراء، ويمنع الشعراء . . »، وفى غمرة ذهولهم وخيبة الأمل التى غشيت اجتماعهم، انسل جرير عائداً من حيث أتى، وهو يغمغم :

- «أيها المساكين . . إنه رجل لا يتأخر بالكلمة . . فانتظروا عهداً آخر، وخليفة جديداً . . » .

غير أن جرير كان يحس فى قراره نفسه، وهو يفكر فى أمر عمر ابن عبد العزيز، إأنه أمام سماء ما طاولتها سماء .

●●●



أبو خيثمة

سنوات قلائل، تلك التى مرت منذ أن هفا إلى الوجود شعاع الدعوة المحمدية. . ومع ذلك فاليوم ترى المدينة وقد احتشد فيها ثلاثون ألفًا مستعدين للزحف شطر شمال الجزيرة العربية حيث تتوثب جنود الرومان. .

ما أعجب الزمان وتصاريفه، أهذا هو مصير الطريد المهاجر محمد، الذى كان بالأمس مادة للسخرية، ومناط الإيذاء؟!. . فما باله اليوم وقد فتحت له المدائن أبوابها، وأسرعت إليه وفود القبائل، وزعماء الشعائر يطلبون الأمان ويؤمنون بالله؟ ثم ها هو يتحرك كالطود الشامخ لنيازل جحافل الروم الذين اعترضوا طريق الدعوة، وفرضوا الضغط والإجحاف ضد الحرية وأجنادها. .

اليوم قائظ، والشمس ملتهبة تكاد تشوى الوجوه، وتحيل جلاميد الصخر إلى كتل من النار المتأججة، وأبو خيثمة ينطلق بعوده النحيل ناحية المدينة. . إنه يمضى كاسف البال، شارد النظرات مضطرب الحركات، يحث خطاه نحو المدينة غير عابئ بما يتقد حوله من حر لافح، ولاقيظ أليم. .

إن أبا خيثمة قد أضحى فريسة للهم القاتل، والألم الممض، لقد

مس الحزن شغاف قلبه فأقض مضجعه، وأرق نومه وضميره الهادئ المطمئن. . صار مرتعًا للحيرة والشك وميدانًا للاصطراع النفسى القاتل. «لِمَ كل هذا الضنى والعذاب يا أبى خيثمة؟ إنك يا أبا خيثمة تتمتع بصحة قوية، وذرية طيبة مباركة ولك من النساء زوجتان كريمتان يؤنسان وحشتك فيهما حلاوة الحديث وجلال الطلعة، وبشاشة الرضا، ولك بيت من أجمل بيوت المدينة وأروعها يحفه بستان فواح النبت، نضير الأشجار، ويرضى دنياك ويهنأ لك الفؤاد. . !!.

ماذا بعد ذلك يا أبا خيثمة ؟؟ ألم يتم الله عليك نعمته بالإسلام فآمنت، وانتظمت فى سلك الداعين إلى الله، وخضت مع محمد المعارك حاملاً حياتك على كفك، غير هياب ولا وجل، تشرى الحياة الآخرة بالدنيا الفانية!!..

لكن آه يا أبا خيثمة!!.. إنك لن تنسى أبدًا تلك الليلة الليلاء، ولن تنسى ما أصابك من بله وخيبة آنذاك، وأى بله وأى خيبة يا أبا خيثمة!.

إن أبا خيثمة ليذكر تمامًا ماذا حدث فى تلك الليلة، ويذكر مدينة الرسول ولا حديث لها غير التعبئة العامة التى دعا إليها الرسول، وأبو خيثمة يذكر تمامًا كيف وسوس له الشيطان بحديث كله تقاعس

وتثبيط وزيف ودهاء، فما لمحمد وللرومان؟ إن دون الوصول إليهم آمادًا طويلة وفيافى قاحلة، ومشاقًا تنوء بحملها الجبال، إن الطريق إليهم كله أهوال، ثم إننا معشر المسلمين لم نكد نضع السيوف فى أغمادها، ولم تكد تأوى الإبل إلى مرابضها، حتى يتهيأ لنا ولها قسط من الراحة حتى يدعو النفير، وتدق طبول الجهاد من جديد!!.

ثم هناك كثيرون غيرى يستطيعون أن يديروا رحى الحرب، ويشعلوا نارها، ولن يضيرهم أن يغيب أبو خيثمة!! لكن.. كيف ذلك يا أبا خيثمة!؟ إن القرآن يقول: ﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٤١]، هذا صحيح غير أنك يا أبا خيثمة قد ساهمت بسهمك، وأدليت بدلوك، وماذا عليك لو تخففت من أعباء النضال ولو مرة واحدة؟

ثم أخذ الكرى بمعاقد أجفن أبى خيثمة بعد أن قضى شطرًا طويلاً من تلك الليلة الليلاء وهو نهب للأفكار المتباينة والهواجس المضطربة والمشاعر الموزعة المختلطة.. وكان نومًا مليئًا بالأحلام المتصلة المزعجة..

وأصبح الصباح ولا حديث للمهاجرين والأنصار غير الجيش المتأهب للارتحال، ويدرك المار فى شوارع المدينة ومنعرجاتها انشغال

المسلمين بالمعركة المقبلة، فهذا فتى قد حمل سيفه، يروح ويغدو فى فخر وأمل، ويبسم للغد المجهول ويمنى نفسه بالنصر المؤزر، ولا شىء غير النصر بإذن الله . . وهذا صبى حدث السن يتعلق بثوب النبى واضعًا حياته بين كفى الرسول حتى ينال الشهادة فى سبيل الله، فيمسح النبى على رأسه مبتسمًا داعيًا له بالبركة والخير، وهناك فى طرف من أطراف المدينة حشد من الشباب قد أقاموا معسكرًا بدائيًا يتدربون فيه زحفًا على الرمل، ولقاء بالسيوف ، وتسابقًا على إطلاق الرماح . . وفى جانب آخر أحد الخبراء بضروب الحروب ووعثائها وأسفارها يخط برمحه مبينًا موضحًا، وفى شوارع المدينة يجرى الغلمان فى فرح ومرح يرددون أناشيد الجهاد فى عذوبة بارعة، وسذاجة فطرية، ولو أتيح لعين أن ترقب ما وراء جدران البيوت لرأت ربات الحجال، وهن يلقين الأحاديث عن كيفية تضميد الجروح وإسعاف الساقطين فى ميدان الوغى . . وطبيعى أن يرى المسجد الكبير فى المدينة وأفواج المسلمين لا تكاد تنقطع عنه مصلين مبتهلين . .

●●●

وارتحل الجيش نحو وجهته . .

وكان أبو خيثمة من القاعدين المتقاعسين، وآب إلى بيته يقتات الألم ويلوك الأوجاع والأحزان، فلا امرأته الأولى تسليه، ولا

زوجه الثانية تذهب بابتسامتها عنه الأحزان، ولا بستانه بأريجه الفواح ونسيمه العاطر بالذى ينعش حياته ويبعث النشوة فى قلبه . .

ويحك يا أبا خيثمة، ليتك تستطيع أن تشترى راحة البال ورضاء الضمير بدنانير كما تشترى الإبل والمتاع، إنه القلب يا أبا خيثمة بين أصابع الرحمن وحده، مقلب القلوب والأبصار، إن الحياة إذا اجتاحتها الهموم، وتشربت باليأس والأرق، أضحت جحيمًا ما بعده جحيم، فلا شفاء يا أبا خيثمة مما أنت فيه إلا بالموت!! الموت؟؟ دع الموت جانبًا يا أبا خيثمة، لقد آثرت الفرار منه، وهو الذى كان يفر منك يوم الطعان والجلاد . . إن أقرانك يا أبا خيثمة الآن يضربون فى الوهاد والفجاج، يخوضون إلى الله عرض الصحارى فى إباء لا يعرف الخنوع، وهمة لا تعرف الفتور . .

ثم تفيض عيون أبى خيثمة بالدمع السخين . . بينما تتوارد الخواطر على مخيلته، ويهتف فى تشبث وإصرار وإيمان :

«يا رب . . رحمتك يا رب . . » .

ثم يعود أبو خيثمة لذكر الأقران والخلان الذين خاضوا- ويخوضون مع النبى ﷺ الغمرات، ويقول لنفسه : أترضى بالحياة بعدهم، ويلذ لك المقام؟ . .

وضاقت الحياة بأبى خيثمة، كما ضاقت به نفسه، وأفزعت الأحلام كما روعته الحقائق الجلية، فما أن أشرق الصباح حتى يمم وجهه شطر الهضاب التى تشرئب بأعناقها إلى المدينة، وأسرع الخطو نحو هاتيك الهضاب تاركًا المدينة خلف ظهره لعله يلقى شيئًا من هدوء البال وراحة الضمير فى جو الصحارى الهادئ الوادع، وبينما هو فى سيره إذ به يسمع صوتًا نديًا مجلجلاً ينبعث من بعيد فيثير الشجن، ويأخذ بمجامع الفؤاد.. ما هذا؟ لعله صوت حاد من حداة النجائب؛ وقادة الركبان وقد آبوا من سفرة طويلة؛ وما أن اقترب وقت الظهيرة حتى كانت تلك الإبل المقبلة على قيد خطوات منه وإذا بحاديها يبدؤه بالسلام؛ ويقبل على أبى خيثمة مقبلاً ومعانقًا؛ ولم يخطئه أبو خيثمة فقد عرفه فى التو واللحظة؛ فهو أحد أصدقاء صباه؛ ورفقاء شبابه؛ يقطع عمره فى الأسفار والرحلات من أجل التجارة..

وجرى بينهما الحديث متشعبًا، وقطع صديقه التاجر الحديث فجأة، وقال:

- «ألم يأتك بنبأ محمد يا أبا خيثمة؟».

- «ماذا بربك عنه وعن جيش المسلمين؟».

- «أتقصد جيش العسرة؟».

- «عسرة؟ أية عسرة؟ إنهم ثلاثون ألفًا من المسلمين الأشداء».

- «أجل . . لكن كانت فى طريقهم أهوال».

- «أكمل بربك الحديث . . ».

- «لقد نضبت عليهم آبار الماء؛ ونفقت منهم الأنعام على قلتها؛ والتى لم تمت ذبحوها حتى يمتصوا من أمعائها بعض الماء من شدة العطش، وصار كل ثلاثة يتتابعون على ظهر دابة واحدة . . بل الأنكى والأمر من ذلك يا أبا خيثمة أنهم يعتصرون روث الدواب حتى لهم بعض الماء ليشربوا».

وصمت التاجر العربى هنيهة بينما هتف أبو خيثمة فى انفعال:

- «لهف نفسى على محمد وأصحاب محمد، لهف نفسى على السائرين فى بطون الصحارى، يشدون الرحال إلى الله، ويحثون الخطى نحو الجنة!!!».

●●●

عاد أبو خيثمة إلى بيته دامع العين وقد اعتزم أمرًا، وبانت على وجهه علائم الجد واتسمت ملامحه بسمات الصرامة والإصرار الأكبر، وغاضت الابتسامة من صفحات وجهه، ولم يبق إلا بريق عينيه وهما يتقدان عزمًا ويشعان إصرارًا . . ترى ماذا ينتوى؟.

ودخل منزاه بالمدينة، فوجده كعهده به هادئًا ساكنًا يوحى بالرضا والطمأنينة، ولكن أنّى له الرضا، وأنّى له الطمانينة؟؟.

وجد زوجتيه يشرق وجهها بالنضارة والوسامة ويفيض حبًا ووفاء، وعند كل منهما وجد طعامًا شهيًا طريًا، وماء عذبًا باردًا لكن أى طعام ذاك؟؟ والله لبضع بلحات جافة مع محمد وصحبه أحب إليه من خراف لذيذة شهية، وإن تلك القطرات التى يعتصرونها من روث الدواب فى قلب الصحراد لأشهى لنفسه من أى شراب فى الدنيا.

ثم ينظر أبو خيثمة إلى بستانه الفواح العبق فيهتف به قلبه قائلاً: والله إن لهيب الصحراء وجدبها وجفاف ريحها لأحب شىء إلى الأحرار المؤمنين وهو غزاة فى سبيل الله.

- «أبعدا عنى هذا الطعام.. احملا عنى ذاك الماء العذب البارد، فما بى ظمأ ولا جوع إلا إلى الله.. إلى الأحباء..

أبو خيثمة هنا فى الراحة والنعيم ورسول الله فى الشمس والريح، هلموا إلى بجوادى وسيفى وزادى..

فوالله لن أدخل عريشة أحدكما إلا بعد أن ألحق بمحمد».

●●●

وانطلق أبو خيثمة كالفضاء النافذ إلى الشمال، إلى جيش

العسرة وانطلق جواده يسابق الريح وأبو خيثمة يعبر بخياله الآكام ويسابق بآماله الجواد، وخفقات قلبه تسرع فى نبضها، مرحى مرحى.. سيلقى محمداً وصحبه الأبرار.

واستطاعت الراحة والهدوء أن يعرفا طريقهما إلى قلبه، ومس برد السلام شغاف فؤاده، وقر ضميره الحائر، وبدت الدنيا أمام عينيه براقة سعيدة، وانماعت أمام بصره سالف الأوهام والآلام.. ألا ما أحلى راحة الضمير وهدوء البال، وما أحلى صفاء النفس إذا شقت طريقها إلى الله!!.

وسار أبو خيثمة تسلمه الوهاد إلى الوهاد، لا تثنيه حرارة الشمس، ولا يمنعه ظلام الليل، ولا يوئسه بعد الشقة ووعثاء الطريق.

●●●

ولاحت فى الأفق لعينى أبى خيثمة مضارب الخيام، ورايات المهاجرين والأنصار ،وكلما اقترب تناهى إلى سمعه جلجلة رائعة كلها تكبير وتحميد.. ودعاء.. وضراعة.

والتقى أبو خيثمة بالسرايا والطلائع المسلمة المنبثة فى شتى الفجاج والمشارف التى تحيط بالجيش.. جيش العسرة الذى يرابط فى «تبوك».

ثم كــان اللقــاء الحــار والعناق الطويل، والدمــوع المخـتلطة بالبسمات والقبلات الخالصة الوفية، أليسوا رفقاء الجهاد وإخوة الإسلام، وأحباء الصبا والشباب؟؟.

ولم يبرز للمسلمين وهم فى تبوك أحد لينازلهم أو يناوشهم، وانسحب الأعداء قابعين خلف حدوهم لا ينون حربًا ولا شرًا. . أما القبائل العربية الشمالية المتصرة فقد لاذت بالاستسلام التام والخضـوع لأمـر المسلمين، ووفـدت على مـحـمـد رسلهم وهم يحملون إليه الود والمحبة والسلام فاستبشر محمد بهذا الفتح الذى جاءهم سهلاً بعد ما لاقوا من متاعب الطريق ومشاقه فـأعطاهم الأمـان، وأبرمت مـواثيق الصلح، وعـهـود الجـوار الصادقة الوفية.

ثم سار ذكر جيش العسرة، وانتصار المسلمين فى تبوك فى كل مكان،، وتحدث بذكره البدو والحضر، وقبع المنافقون فى أوكارهم يعضون من الغيظ على الأنامل، وتردد فى الخافقين قصة الإسلام المندفع المتيقظ الذي لا تقمعه سدود، ولا تصده إمبراطوريات، ولا يقل من عزمه طغاة متربصون.

ثم كانت العودة الميمونة. .

ها هو أبو خيثمة يميس طربًا على جواده الحبيب، ممتشقًا

حسامه بيمينه، ويبدو بين أصحابه وأخدانه فى لبوس الحرب كأحسن ما يكون فرحًا وسعادة وبشرًا، وها هو النبى ﷺ يشرف بطلعته فى المقدمة، وسحر البيان ينسال من فيه فيأخذ بمجامع القلوب، وها هم الجنود الأحرار تتعالى أصواتهم بالتكبير والتهليل..

إن أبا خيثمة ينظر إلى المدينة من بعيد، فتبدو له أبنيتها ونخيلها.. ثم يسرع خياله إلى داره الوادعة، وبستانه الجميل، وزوجتيه الحانيتين ثم يتذكر ذاك النصر الذى أيد الله به المسلمين، فيخفق قلبه خفقات غامضة حبيبة إليه، ويلتفت إلى من حوله فيهتف من أعماقه مكبرًا مهللاً.

وما أن يدخل الركب الربانى الخالد إلى المدينة حتى تصل مسامعهم أصوات الغلمان الأحباب، الفرحين بنصر الله، والمرددين بعودة آبائهم وإخوانهم، أصوات صادقة بريئة ساذجة، ولعل أبا خيثمة قد سمع بين هاتيك الأصوات صوت أحد أبنائه وهم يرددون معًا النشيد القدسى الخالد الذى استقبلوا به الرسول ذات يوم:

طلع البدر علينا

من ثنيات الوداع

وجـب الـشـكـر عـلـيـنـا

مـــــا دعـــــا لله داع

أيهـــا المـبــعـــوث فـــينا

جـــئـت بالأمـــر المـطاع

جـــئـت شـــرفت المديـنة

مـــرحـــبـا يا خـــيـــر داع

●●●



سلطان العلماء

كان العز بن عبد السلام يمضى فى أحد شوارع المدينة، وكانت رأسه نهبًا لانفعالات شتى، انعكست كلها على وجهه الشاحب، ونظراته الحائرة، ولحيته المرتعشة.

ومن آن لآخر يرفع رأسه المنكسة، ثم يجوب بنظراته الشارع طولاً وعرضًا، وسرعان ما يضع كفه فوق عينيه أسى ولوعة.. إن ما يراه أمر فظيع حقًا.. هل كان يتصور أن يصل الحقد والانحراف بسلطان دمشق «الصالح إسماعيل» إلى حد أن يسمح للصليبيين بدخول المدينة كى يشتروا ما يحتاجون إليه من سلاح وأقوات؟؟ هل كان يصدق أن ذلك السلطان العاق سوف يسلم إليهم بعض قلاع المسلمين؟.

والناس فى دمشق يتساءلون فى حيرة وحزن: متى ينتهى عداء الملك الصالح إسماعيل سلطان دمشق مع ابن أخيه نجم الدين أيوب سلطان مصر؟ أليس عجيبًا أن يستعين حاكم دمشق بالفرنجة ليؤمن ملكه، ويحمى نفسه من ابن أخيه؟ أهكذا تنقلب كبريات القيم، ومقاييس الأخلاق، ويعبث العابثون بحقائق دينهم؟.

وغمغم ابن عبد السلام والألم يعتصر فؤاده:

- «لن تنتهي هذه المأساة إلا بعد أن تنتهي مطامع الملوك، ولن تنتصر على الفرنجة إلا إذا انتصرنا على أنفسنا وهيهات..».

كان الموقف شائكًا حرجًا وطغيان السلطان لايدع رأسًا ترتفع فى اعتراض، أو فمًا ينطق باحتجاج، والسيف مصلت فوق الرقاب، وغياهب السجن الكبير على استعداد لأن تلقف كل من تحدثه نفسه بعصيان أو تمرد، لكن ما معنى ذلك؟ هل نظل نصمت والخوف يبسط رواقه فوق كل مكان، ويظل السلطان الصالح إسماعيل سادرًا فى غيه، متماديًا فى انحرافه؟؟

ووصل العز بن عبد السلام إلى بيته، وجمع أهله، ثم أرسل كلماته فى تؤدة وقوة وإصرار قائلاً:

- «هذه الدنيا لا تساوى عند الله جناح بعوضه.. وكلمة الحق فريضة، فإذا كانت كذلك بالنسبة لعامة المسلمين فما بالكم بالعلماء؟.. وممالأة أعداء الدين جرم أى جرم.. وسلطان دمشق قد خان الأمانة، وخالف أصلاً من أصول الدين.. وأنتم يا أهل بيتى خير من يفهمنى، ويفهم أن رسالة العالم، وحقيقة الإيمان تأبى السكوت على هذا الضيم.. ولذا قررت أن أخوض المعركة ضد الصالح إسماعيل.. وضد الفرنجة..».

وأمسك الشيخ عن الحديث.. بينما ران على الجميع صمت عميق قطعه الشيخ قائلاً:

- «فماذا ترون؟».

فغمغم ابنه عبد اللطيف :

- «إنك يا أبتى أضعف من أن تتحدى السلطان، أو تشهر فى وجه أنصاره سيفًا . . » .

فأسرع الشيخ قائلاً فى حدة :

- «غفر الله لك يا بنى . . إن كلمة الحق وحدها جيش كامل العدة والعتاد . . وقد قررت أن أقولها . . أتحسب أن أباك يحرص على حياته ومنصبه؟ .

فما الفرق إذن بينى وبين السلطان إذا كان هو حريص على ملكه وأنا حريص على متاع دنياى ومغرياتها . . ؟ سأمشى بين الناس يا عبد اللطيف . . وسأقول لهم فتواى : إن من يتعامل ع الفرنجة المعتدين فهو آثم . . ومن يبيع لهم السلاح أو القوت فهو آثم . . والاستعانة بهم على إخواننا فى مصر ذنب كبير والا . . . أستودعكم الله . . » .

●●●

وشاعت فى دمشق كلها فتوى الشيخ العز بن عبد السلام، وتناقلتها الأفواه من مكان إلى مكان، واهتزت قوائم عرش السلطان، وخاصة عندما وقف ابن عبد السلام على منصة الجامع الكبير فى دمشق، وأعلنها صريحة مدوية، وشعر الشيخ الجليل

وهو يهاجم السلطان، ويذم فعلته الشنعاء شعر بغير قليل من الارتياح وخاصة حينما أخذ ينتقل ببصره بين الألوف التى احتشدت فى المسجد، والتى أخذت تنصت إلى كلامه باهتمام بالغ، وشغف زائد. . كانت وجوه المصلين تشرق بالأمل والثقة آنذاك، وعيونهم تبرق فى اعتداد وكبرياء. . أليس فيهم رجل- يا له من رجل- يصرخ بما يعتمل فى نفوسهم، ويثور على السلطان الخائن، ويطلق كلمة الحق دون خوف أو وجل؟!.

ولم يكتف الشيخ بذلك، بل قطع من الخطبة الدعاء للسلطان وأخذ يدعو قائلاً: «**اللهم أبرم لهذه الأمة إبرام رشد؛ تعز فيه أولياؤك، وتذل فيه أعداؤك، ويعمل فيه بطاعتك، وينهى فيه عن معصيتك..**» والناس من حوله يضجون بالدعاء وكأنهم الرعد القاصف. . .

وصدر أمر السلطان باعتقاله فى بيته فلا يزور ولا يُزار وعزله من الخطابة فى مسجد دمشق، ومن التدريس أيضًا، فلا إفتاء ولا وعظ.

وقال الشيخ لابنه عبد اللطيف فى أسى عميق:

- «ها أنت ترى يا بنى أن أباك أحقر من أن يقتل فى سبيل الله إن قصارى ما فعله السلطان هو عزلى من مناصبى. . إنه شىء فظيع

فى حد ذاته لكن الذى يزعجنى حقيقة هو هذا السجن القاسى، إنى يا بنى لا أستطيع أن أعيش سعيدًا بعيدًا عن عامة الناس . . أتوق دائمًا إلى الحديث معهم، ومناقشة قضاياهم ومشاكلهم، أحس أيضًا أن مشاعرى مختلطة بمشاعرهم فكأننا جسد واحد. . بناء واحد يا ولدى ولهذا قررت أن أهاجر إلى مصر . . سواء رضى السلطان أم لم يرض . . سأجد هناك إخوانًا لنا . . وسأبدأ المعركة أعنى سأوصلها».

أحس السلطان بأن دمشق من حوله تغلى، وأن الجو مشحون بالحنق والتحفز، وخاصة بعد أن ارتحل الشيخ العز بن عبد السلام صوب بيت المقدس مهاجرًا، ولهذا جمع ما تيسر من الجنود وسار يصحبه عدد كبير من جند الفرنجة، فى طريقه إلى مصر ب نقض على ابن أخيه السلطان كى يضع حدًا لمخاوفه، ويأمن على نفسه وعلى ملكه.

وكان السلطان من السذاجة بحيث كان يأمل فى أن يرجع الشيخ العز بن عبد السلام عن رأيه، ويضمه إلى صفه، ولهذا فكر فى أن يلحق به ويستميله من جديد؛ لأنه إذا نجح فى ذلك فسوف يحقق نصرًا أدبيًا كبيرًا، فهو رجل يحترمه الناس، وينصاع لرأيه الكثيرون، ويدين له العامة بالحب والولاء، وهذا ما جعله يبقى على حياته.

وحينما وصلت جيوش الصالح إسماعيل والفرنجة إلى بيت المقدس، سير بعض خواصه إلى الشيخ بمنديله، وقال له: تدفع منديلى إلى الشيخ، وتتلطف به غاية التلطف، وتستنزله وتعده بالعودة إلى مناصبه على أحسن حال، فإن وافقك فتدخل به على، وإن خالفك فاعتقله فى خيمة إلى جانب خيمتى.. فلما اجتمع الرسول بالشيخ شرع فى مسايسته وملاينته ثم قال له:

- «بينك وبين أن تعود إلى مناصبك ما كنت عليه وزيادة، أن تنكسر للسلطان، وتقبل يده لا غير..».

فابتسم الشيخ فى سخرية مرة، ثم قال دون وجل أو إبطاء:

- «والله يا مسكين، ما أرضاه أن يقبل يدى فضلاً عن أن أقبل يده، يا قوم أنتم فى واد، وأنا فى واد، والحمد لله الذى عافانى مما ابتلاكم به.. افعلوا ما بدا لكم..».

وبقى الشيخ فى أسره ومن حوله الحراس والعيون، وشبح الموت يحوم فوق خيمته فى كل لحظة، وبالرغم مما كان يقاسيه من أذى وإرهاب، فإنه بقى كما هو صابراً صامداً، لا يخيفه قهر، أو ينال منه إيذاء، يقضى وقته فى قراءة القرآن، والابتهال إلى الله كى تنجاب هذه الغمة، وتذهب هذه الفتنة الرعناء وتنمحى تلك الأحقاد الصغيرة، والمطامع الذاتية الفانية، ولم يتزعزع إيمانه قط، فقد كان واثقًا أن الله لا بد مفرج كربته، ومؤيد لجهاده.

وحينما اقترب منه الخطر ، وأصبح قاب قوسين أو أدنى من الموت ، فوجئت بيت المقدس بجموع غفيرة من جنود مصر يقودها الملك نجم الدين أيوب ، وانقضت على قوات الفرنجة وقوات الصالح إسماعيل ، فمزقت شملهم وأشبعتهم قتلاً وتنكيلاً والسعيد من نجا بجلده ، وبين عشية وضحاها ذهب الخائن وأتباعه . . وضاع ملكهم ، وأصبح أثرًا بعد عين . . وزحف موكب الحرية والنصر إلى المدينة الخالدة دمشق ليبعث فيها الحياة والحب والأمل من جديد . .

أما الشيخ العز بن عبد السلام فقد كان فى سجنه الصغير ، يقف وعيناه مشدودتان إلى السماء ، مخضلتان بالدموع ، دموع الشكر والاعتراف بالجميل ، وأحس وهو مستغرق فى ابتهالاته بيد تمسح على كتفه فى حنان وتقدير :

- «أيها الشيخ الجليل . . يا سلطان العلماء . . الطريق إلى مصر مفتوح أمامك . . فلتذهب أنى شئت . . » .

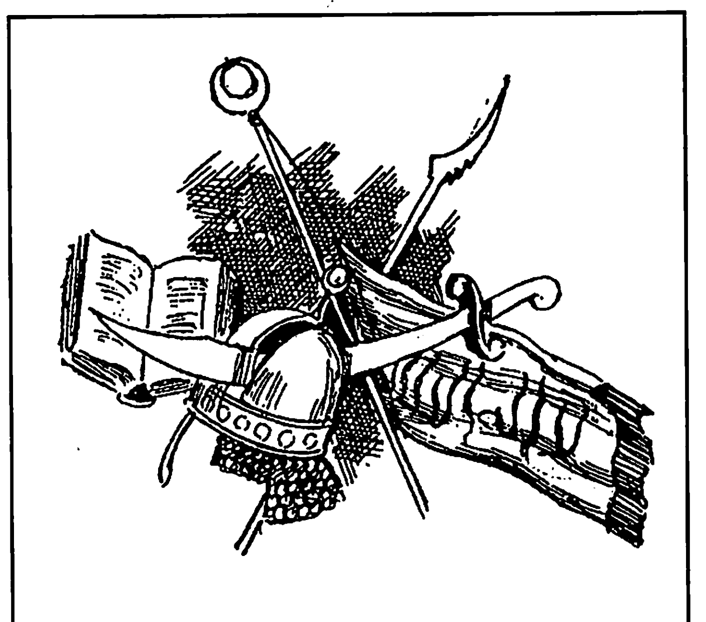
وغمغم الشيخ فى أسف :

- «وأين الخونة والمعتدون؟» .

- «لقد دالت دولتهم . . وانتهوا . . ولم يبق أحد» .

فرد الشيخ العز قائلاً :

- «أجل . . ذهبوا . . وبقيت كلمة الحق . . لأنها لن تموت . إلى مصر غدًا . . » .



واحسيناه..

الصحراء موحشة مكفهرة، والقيظ يلفح الوجوه، ويحيل الرمال جمرًا متقدًا، والحسين بن على يسير على رأس القافلة التى تنقص كثيرًا عن المائة عدًا، بينهم الأطفال والنساء والرجال، تجمعهم أواصر القربى، واتحاد الهدف. . وكانت الرحلة شاقة، محفوفة بالمخاطر، والطريق إلى الكوفة مفروش بالشوك والدماء والمؤامرات.

ومن بعيد لمح الحسين رجلاً يركب جوادًا، فرجح أنه قادم من ناحية الكوفة، فلما اقترب منه تبين فيه «الفرزدق» وما أن تبادل معه التحية حتى أسرع الحسسين قائلاً:

- «كيف حال العراق يا فرزدق؟؟».

فاكتسى وجه الفرزدق بالألم والحزن، وأطرق برأسه حائرًا، وماذا يقول للحسين ابن بنت الرسول؟؟ أيواجهه بالحقيقة المرة؟؟ إن الفرزدق يعلم علم اليقين أن أهل الكوفة قد رفضوا أن يبايعوا يزيد بن معاوية أميرًا للمسلمين، وأرسلوا فى طلب الحسين وهو فى مكة كى يبايعوه، فما كان منه إلا أن جد فى المسير، يطلب الكوفة، فالرأى ما رأى المسلمون، وكلمة الجماعة المؤمنة فوق رأى الفرد مهما حاز من سلطان، واتسم ببطش، وسلك طريق الوعد والوعيد، ولكن الوضع كان قد تغير تغيرًا كليًا، بعد أن ولى يزيد

عبد الله بن زياد حاكمًا على الكوفة، فلجأ إلى القوة، واستعمل التهديد تارة، واللين تارة أخرى، واستباح لنفسه كل الوسائل كى يخمد أية حركة تناوئ «يزيد» أو تدعو إلى مبايعة الحسين بن على، ولم يكن لتلك السياسة الخبيثة من نتيجة سوى تخويف أعوان الحسين، وبذر بذور الهلع والرهبة فى نفوسهم، وهذا ما جعل الفرزدق يقع فى حيرته القاتلة، ولا يجيب على سؤال الحسين حين استفسر منه عن أهل الكوفة، فعاد الحسين إلى سؤاله مرة ثانية، فلم يجد الفرزدق مناصًا من أن يقول فى لوعة:

- «ياسبط رسول الله.. القلوب معك.. والسيوف عليك.. والنصر فى السماء.. وليفعل الله ما يشاء».

وصارت القافلة الصغيرة قدمًا، لم يهن الحسين أو يتردد، بالرغم من أنه يفهم موقفه الحرج فهمًا دقيقًا، فأتباعه فى مكة والمدينة والكوفة قد تفرقوا من حوله، وليس معه ما يصح أن يسمى جيشًا، و«يزيد» أصبح بعد أبيه الحاكم بأمره، وأميرًا للمسلمين، يحيمه جيش كبير بعتاده ورجاله، والمال مكدس فى خزائنه، يغدقه على يشاء ويشترى به الضمائر المريضة، ويؤلب الناس ضد أهل البيت، ويخمد به الثورات.. كان الموقف إذن واضحًا فى ذهن الحسين تمام الوضوح، لكنه فى الوقت نفسه كان يؤمن إيمانًا جازمًا أن حكم بنى أمية قائم على السيف والدينار والمكيدة، وأن «يزيد»

قد اعتلى منصة الحكم، وورث الملك بغير وجه حق، ودون أن يكون لديه ما يؤهله لذلك، سواء بالنسبة لخلقه الشخصى أو مقدرته الإدارية، أو فقهه الدينى، أو إجماع الأمة عليه إجماعًا حرًا شريفًا، ومن ثم فقد رأى الحسين أن هذا وضع شاذ فى المجتمع الإسلامى الناهض، يجب أن يقضى عليه حتى تنتهى المظالم، ويعيش الناس فى أمن وسلام وحرية، فيبايعوا من يشاءون، . وينزعوا البيعة ممن لا يسير على الجادة.

وغمغم الحسين بينه وبين نفسه:

- «ألست على حق؟».

فكان الرد بالإيجاب، رد انبعث من أعماق ضميره، بل عندما طرح السؤال على رفاق القافلة، أقروه على رأيه، وبايعوه على الموت..

كانت معركة حق..

وكان الحسين- رغم ضعفه المادى- مصرًا على المسير. . وكان يفهم أيضًا أنه لو مات فسوف يكون فى ذلك الصراع اليائس معنى الانتصار. . إن رضاءه بالأمر الواقع فيه سلامته وسلامة أهل بيته، لكن المسألة أكبر من ذلك. . إنها لا تتعلق بسلامة فرد أو قبيلة، ولكنها تتعلق بقضية كبرى. . قضية الحق. . الذى أنزله الله، وحمل جده عليه الصلاة والسلام رايته خفاقة بين العرب.

وعند مشارف كربلاء برزت كتائب يزيد بن معاوية وأحاطت بالحسين ومن معه، ومنعتهم من التقدم أو ورود الماء المجاور، حتى استبد الظمأ بالحسين ومن معه، وأخذ الأطفال يصرخون، ودموع النسوة تنسكب على خدودهن من أجل أطفالهن المساكين، وأبى جنود يزيد أن يفكوا الحصار إلا إذا بايع الحسين «يزيد» وأسلم نفسه لهم . .

وابتسم الحسين لمطالب جنود اليزيد، وشعر آنذاك أنه أقوى ما يكون عزمًا وإصرارًا على المضى فى طريقه، فقضية الموت أو الحياة، ومسألة النصر أو الهزيمة لا يحتاجان لتفكير كثير؛ لأنه على حق، ولن يترك الحق يموت . . وسمع الحسين من خلفه صوتًا يعرفه تمام المعرفة، صوت رجل من أقربائه وأحد رجال القافلة :

- «يا حسين . . » .

- «نعم . . » .

- «انظر . . إنهم يحيطون بنا من كل جانب . . والأطفال يبكون . . والذئاب التى أطلقها اليزيد لا ترحم . . لا تجود حتى بالماء . . » .

فقال الحسين وهو يدقق فى رفيقه النظر :

- «وهذا يزيد إيماننا بأنهم طغاة . . والذئاب يجب ألا تحكم مصير المسلمين؛ على الأقل ونحن أحياء . . » .

فقال الرجل والأسى يقطر من نبراته الحزينة :

- «حق ما تقول، لكن هناك أنباء جديدة . . » .

ودون أن يختلج الحسين، أو يبدى شيئًا من ذعر أو إشفاق قال :

- «ما هى؟؟» .

- «لقد قتلوا مسلم بن عقيل . . رسولك إلى الكوفة قذفوا به من فوق بناء شامخ . . وأهل الكوفة ينظرون إليه دون أن يحركوا ساكنًا» .

فترطبت عينا الحسين بدموع أبت أن تسيل، وقال :

- «إلى جنة الخلد . . » .

- «وليت الأمر وقف عند هذا الحد . . » .

- «ماذا أيضًا؟؟» .

- «لقد جمع حاكم الكوفة كبار أنصارك ومؤيديك، وساقهم إلى الموت فى الميادين العامة على قارعة الطريق، فاكتظت بيوت الكوفة بالدماء . . والثكالى . . والأرامل . . والأطفال اليتامى» .

وجفف الحسين دمعة غلبته، بينما استطرد الرجل قائلاً :

- «ورصد جائزة كبرى لمن يسفك دمك أنت ويأتى برأسك . . يا للشناعة . . » .

فتهلل وجه الحسين من جديد وهتف :

- «إنى أشم رائحة الجنة . . إذا كان ظلمهم قد صعق المثاليات فى الكوفة ، وصرع المبادئ ، فلا أقل من أن يسجل الحسين وحبه على رمال كربلاء قصة الحق الذى لا يخاف الموت . . » .

فصمت الرجل ، بينما قال له الحسين :

- «لك الخيار إن شئت رجعت من حيث أتيت ، وإن شئت سرت معنا حتى نهاية الطريق . . » .

- «معك . . والله معنا . . » .

ومد يده مصافحًا ، وكان وجه الرجل يتهلل فرحًا ، لكن الدموع كانت تغرق عينيه ، إذ إن أصوات الأطفال كانت تناهى إلى سمعه «نحن عطاش يا أماه . . والحر يشوى الوجوه . . » .

أما جنود اليزيد فقد كانوا مسلوبى الإرادة ، يأمرهم ، فإذا ما ترددوا لوح لهم بالعقاب المرير ، كانوا يعلمون طهارة الحسين ، ويدركون نبل مقصده ، لهذا فهم يقدمون رجلاً ويؤخرون أخرى . . كانت نفوسهم مسرحًا لنوع عجيب من الصراع الرهيب ، قلوبهم مع الحسين ، وسيوفهم مع اليزيد . . لكأن كل واحد منهم أصبح شخصيتين منفصلتين تمام الانفصال ، فسياسة اليزيد وأعوانه قد حطمت وحدة الفرد وذاتيته ، حتى أحال كل واحد منهم إلى آلة

صماء تتحرك في بطء لتنفذ ما يراد لها، ليس هذا فحسب، بل كان في جنود اليزيد فئة تفلسف مطامعها، وتنتحل المعاذير لانحرافها وأحقادها، وهذا ما جعل ابن الجوشن يمتشق حسامه، ويندفع- هو ورجاله- نحو القافلة الصغيرة المؤمنة، وأخذوا يعملون سيوفهم بلا رحمة..

وفي خيمة مهلهلة- تقبع جوار خيام أهل البيت القليلة، كان طفل صغير يتشبث بثياب أمه وهو ملقى على الأرض، كانت أمه تراقب المعركة من بعيد، لا تكاد تحس بما حولها، والطفل يقول في ضراعة:

- «أمي.. أمي.. ما هذا الغبار المثار.. إنه يملأ فمي وخياشيمي وعيني ويزيد من ظمئي.. جرعة ماء واحدة يا أمي.. جرعة واحدة أستحلفك بالله.. أمي.. لِمَ لاتتكلمين؟؟ إذن خذيني إلى الحسين.. إنه يعطف عليّ، ويبش في وجهي دائمًا.. قولي له إني أريد أن أشرب.. أشرب يا أماه.. لِمَ لا تردين؟؟».

المعركة محتدمة الأوار، والتكبيرات تتعالى من معسكر بني هاشم، وزينب تصيح «واجداه.. وامحمداه..»، والدم ينزف حارًا ساخنًا على رمال كربلاء.. وبعض الأطفال الصغار قد تناسوا ضعفهم وحداثة سنهم، فامتشقوا سيوفًا ورماحًا، ودخلوا المعركة،

وأخذوا يتهاوون كالعيدان الخضراء البريئة عصفت بها ريح قاسية لا ترحم.

وبعد ساعة تلفت الحسين حوله، فوجد أتباعه وأقرباءه صرعى على الرمال قد مزقتهم السيوف، وشوهت معالمهم، والضحايا الأطفال قد رقدوا بلا حس أو حركة، وعلى وجوههم الصغيرة الطاهرة نظرة رعب واستغراب، لما فعلته بهم سيوف هؤلاء الوحوش الآدمية، والنساء خلف الستر، وفى الخيام يعولن ويندبن فى مرارة، ويبكين شهداء المعركة الظالمة.. وجد الحسين نفسه وحيداً، يقف فى حقل من الدماء والأشلاء، ونظرات الجنون والشراسة تطل من عيون الذئاب.. عيون رجال يزيد بن معاوية.. أهكذا ينتصر الباطل، وتتمرد المطامع، فيموت الضمير، وتداس حرمة الحق، ولا يرعى لأهل بيت رسول الله إلاً ولا ذمة؟؟.

وسالت الدموع حارة ساخنة على وجنتى سبط الرسول.. كان يبكى ضيعة الحق، وهوان الكرامة، وكان يبكى هؤلاء الأطفال الأبرياء، وأولئك الرجال الأحرار الذين دفعوا حياتهم ثمناً لفكرتهم ومبدئهم.. وأحس بالعطش الشديد، كان حلقه يلتهب..

وحاول أن يقترب من الماء مراراً، وفى النهاية أقدم ابن الجوشن ناحيته.. كان الجميع فى تردد لا يريدون أن يقترفوا الإثم الأكبر،

ولو رصد لهم اليزيد مال الدنيا بأسرها . . رجل واحد أصابته ريح الشيطان . . فقد قلبه وعقله وإنسانيته وصرّ على أسنانه واندفع - ابن الجوشن - ليسجل على نفسه عار الأبد . .

ورفع سيفه ليهوى به على عاتق الحسين وعلى ذراعه وسال الدم الذكى ليبلل ثرى كربلاء . .

وأخذت ابن الجوشن رهبة ما بعدها رهبة . .

لقد خيل إليه أن نور الشمس الساطعة قد انقلب إلى ظلام . .

وأن أشباحًا رهيبة مخيفة قد أوشكت أن تطبق عليه ، فصرخ . . صرخ من أعماقه صرخة رهيبة . . وفر مذعوراً بعد أن فعل ما فعل .

وظهر من خلفه «سنان» الذى احتز رأس الحسين فى حقد ووحشية وجنون ، كانت مطامع الدنيا ، وظلال النعيم الزائل تتراقص فى خياله المريض . .

هدأ الصخب والضجيج . .

وانطفأ اشتغال المعركة الرعناء . .

وما هى إلا ساعة أو بعض ساعة حتى كانت رأس الحسين الشهيد مرفوعة على رمح طويل ، والعيون ترمقها من كل جانب ، وفيها دموع . . كانت رأسه كالقمة الشهباء . . كالأمل الكبير . . كالمنصة العالية التى ترمقها الجموع فى ذهول ورهبة . .

أكان موتًا للحسين أم حياة له . . ؟؟

وفى أثناء ذلك الصمت المطبق، وهذا السكون المهيب، سمع الواقفون صوتًا يعرفونه تمام المعرفة، يصرخ فى معسكر نساء بنى هاشم . . كانت زينب تنوح . . وتصرخ فى صوت مبحوح ومجروح من أثر الحزن الكبير :

- «واحسيناه . . واكرباه . . وامحمداه . . » .





على أبواب دمشق

كان الشيخ عابس الوجه، متجهم النظرات، وكان يحرك يديه، ويبعث بأصابعه فى عصبية ظاهرة لم تخف على الجالسين، وران على الجميع صمت رهيب عميق، صمت يجلله الحزن، ويخالطة الألم الممض، وأرسل الشيخ تنهيدة من الأعماق، وقد تخضلت عيناه بالدموع.

لقد طافت بذهنه ذكرى دامية سوداء.. يالها من ذكرى!.. إن كل أحداثها منقوشة فى قلبه بحروف بارزة ملتهبة.. تذكر الشيخ ما حدث له منذ ثلاثين عامًا أو تزيد، حينما كان طفلاً صغيرًا.. كان التتار آنذاك قد هبوا كالإعصار الساحق المدمر من الشرق.. فتركوا المدن والقرى تشتعل فيها النيران، وأقاموا من جماجم القتلى أهرامًا عالية.. وجرت أنهار الدم فى كل مكان، فتلوثت الطرق باللون الأحمر المروع، ثم تذكر الشيخ أباه العالم.. وأمه.. وباقى أفراد أسرته وهم يولون الأدبار مع الملايين غيرهم ممن يخافون الموت ويتعلقون بأهداب الحياة أمام طوفان التتار المتوحشين الذين لا يرحمون.. وتذكر نفسه طفلاً ضئيلاً نحيلاً، تبرق عيناه الصغيرتان فى خوف وقلق وتساؤل: «لماذا نهرب ونترك أرضنا ومنازلنا يا أماه..؟؟!!»، ولم يكن يجد إجابة لتساؤله الحائر سوى صيحات الرعب، ونظرات الهلع التى كانت جلية على وجوه الجماهير، ولم يكن يسمع غير كلمة واحدة تحمل فى ثناياها كثيرًا من الأسى،

والجزع وتقترن بالموت، والدم، والطغيان «التتار . . التتار . . التتار! . . ».

وجفف الشيخ دمعة أوشكت أن تتسلل من بين أهدابه خفية، ولِمَ لا يحزن الشيخ؟؟ إن المأساة التى حدثت منذ أكثر من ثلاثين عَامًا قد بُعثت من جديد اليوم، وها هو ذا (قازان) يدق أبواب دمشق، ومن خلفه التتار كالذئاب الجائعة يسيل لعابهم لالتهام الفريسة، والناس يفرون من دمشق حبًا فى الحياة، والاضطراب والفوضى قد ضربا أطنابهما فى كل مكان، ووسط هذه الظلمات المدلهمة أضاءت بارقة أمل . . . فافتر ثغر الشيخ عن ابتسامة مقتضبة سرعان ما أخفاها، واتخذ وجهه سمت الجد مرة أخرى . . ألا يحق للشيخ أن يشعر ولو بقليل من السعادة حين يتذكر ما تناقلته الأنباء وتحدثت به الركبان، وهو أن السلطان الناصر- سلطان مصر- فى طريقه إلى الشام لإنقاذها من يد التتار والمحافظة على دمشق التى توشك أن تقع لقمة سائغة فى أيديهم؟ لقد أصبح جيش الناصر أملاً تخفق حوله أرواح العرب والمسلمين، وتنتظر على أيديه الخلاص والنصر . . .

وظهر الارتياح على وجه الشيخ- وهو أحمد تقى الدين ابن تيمية- وقال فى نبرات واثقة واضحة:

- «أتدورن فيم تنحصر مشكلة اليوم . . ؟؟».

واتجه إليه الجالسون بنظراتهم المستفسرة، وكانوا موقنين أن الشيخ أحمد بن تيمية يأتى دائمًا بالجديد من الرأى، فهمس أحد الحضور قائلاً:

- «المشكلة هى مشكلة هذه الوحوش الآدمية التى تتربص بنا الدوائر خارج دمشق، وتتلمظ كالأفاعى القذرة لامتصاص دمنا.. ».

فهز الشيخ أحمد رأسه ثم قال:

- «كلا يا أخى.. ليس التتار هم ما أعنى».

- «إذن فماذا يقصد أستاذنا..؟؟».

- «أقصد أن فرقتنا هى أساس كل بلاء، ومصدر كل هزيمة..».

وصمت الشيخ برهة، ثم استطرد قائلاً فى لهجة حزينة آسفة:

- «انظروا تجدوا المسلمين قد انقسموا إلى حكومات محلية منعزلة متناحرة.. واحصروا المذاهب الفقهية والسياسية التى مزّقت شمل العرب.. ولا تنسوا الصراع الرهيب بين الأمراء والبيوت الحاكمة من أجل الوصول إلى الحكم ولو على الأشلاء... فلا تعجبوا إذن إذا ما احتل الصليبيون أجزاء من الشام».

ورفع الشيخ أحمد يده ليجفف العرق الذى أخذ يتقاطر على جبهته، ثم قال وهو يعبث بشعر لحيته:

- «ويكفى علماءنا وطوائفنا ما هم فيه من منافسات ومناقشات لا طائل تحتها ولا همّ لهم إلا الغلبة فيها.. الغلبة الرخيصة..».

فرد أحد الجالسين:

- «لعل الشيخ يقصد ذلك المأجور الحاقد الذى اتهمه بالخيانة ليشوه سمعته فكان جزاء المأجور أن قطعت يده، وأخذ بكذبه..».

فابتسم الشيخ وقال:

- «ليس الحديث عن الأمور الشخصية.. ما قصدت ذلك.. وإنما أتكلم عن الموقف العام..».

وقطع الشيخ أحمد بن تيمية حديثه فجأة، ثم هب واقفًا وقال:

- «أما يزال سكان دمشق يواصلون الفرار منها...؟».

- «ولمَ لا ياسيدى الشيخ؟؟ إن نائب السلطنة نفسه، وكبار رجالها قد ولوا هاربين..».

وأدرك الشيخ أحمد بن تيمية خطورة الموقف، وكنه الأزمة التى توشك أن توقع بهم الضرر الجسيم، إنه المسؤول عن كل هذا لأنه أصبح ملكًا غير متوج فى دمشق لعلمه، ولشجاعته، ولتعلق العامة به وثقتهم فيه، يجب أن يعمل عملاً حتى يوقف هذا التيار

المتخاذل . . يجب أن يخطب ويدعو الناس إلى الثبات والاستشهاد، لقد هُزم التتار منذ ثلاثين سنة . . يجب، والتفت الشيخ أحمد إلى أصحابه، وقال :

- «أريد مناديًا ينادى فى المدينة . . » .

- نحن على استعداد . . لكن بماذا ينادى ؟؟» .

- «يقول : يا أهل دمشق . . لا يسافر أحد إلا بمرسوم . . » .

- «أتعتقد يا شيخنا أن ذلك كافٍ لمنعهم من الهرب . . ؟» .

- «سنحتاط لكل شىء . . الحراس المحيطون بالمدينة سيكونون متيقظين، أما أنا فسأنزل إلى شوارع المدينة وأسواقها ومساجدها وأدعو الناس إلى الجهاد، والاستماتة فى الدفاع عن ديارنا وعقيدتنا» .

وانطلق أحدهم لينفذ أمر الشيخ فى الحال، وفرك الشيخ أحمد يديه فى ارتياح، وقال :

- «بقى أن يصل جيش مصر إلى دمشق، وبعد ذلك نستطيع أن نضمن النصر بإذن الله . . » .

فقال أحد الجالسين :

- «المعركة يا شخنا معركة صبر . . يجب أن نصبر حتى يصل الناصر بجيشه» .

فأجاب الشيخ :

- «أى صبر تعنى والتتار يهجمون كالبرق الخاطف ، ويتحركون بسرعة فائقة حتى يباغتوا أعداءهم ، يجب ألا نكون كالسلحفاة ، يجب أن نسارع فى تكتيل الجهود . . » .

وفى هذه اللحظة دخل شرف الدين- وهو شقيق الشيخ أحمد بن تيمية- وقال فى انفعال وعجلة :

- «يا أخى أحمد . . هناك رسول قادم من مصر الآن . . » فقال الشيخ :

- «أين هو؟؟» .

- «وكان متعبًا مكدودًا من طول السفر ، وقد هيأت له زادًا وماء ليصيب قليلاً من الراحة» .

- «علىّ به الآن . . لا . . لا سآتى أنا بنفسى إليه» .

وخرج الشيخ هو ومن معه وأمامهم شرف الدين قاصدين المكان الذى نزل فيه الرسول القادم من مصر ، وهتف الشيخ أحمد بن تيمية حينما رأى الرسول :

- «السلام عليك يا أخا الإسلام . . ما وراءك من أنباء!!» .

فأجاب الرسول وهو يزدرد بعض الطعام :

- «عليك سلام الله . . » .

ثم تناول جرعة ماء، ونظر إلى الشيخ فى اكتئاب وألم، فقال الشيخ فى حدة مكظومة :

- «ماذا وراءك؟؟ . . تكلم» .

فقال الرسول :

- «تمنيت أن يقطع لسانى حتى لا أنبس ببنت شفة» .

- «خيراً» .

- «بل الشر المستطير يا سيدى الشيخ» .

- «سامحك الله أيها الرسول . . قل فالله أرحم بنا من أن يضيعنا» .

فصمت الرسول لحظة ثم قال :

- «لقد انهارت آمالنا يا سيدى الشيخ . . إن جيش مصر قد رجع إلى القاهرة؛ والسلطان ناصر الدين آثر السلامة، وعاد تاركًا الشام تحت رحمة الأقدار» .

فزمجر الشيخ، وقد جللت وجهه سحابة من الحزن الحانق :

- «آثر السلامة؟! هذا هراء . . إن التتار لن يأكلونا وحدنا نحن اليوم ومصر غدًا . . لن يرحمونا أبدًا» .

فقال الرسول مرتجفًا :

- «إن ناصر الدين يخاف المتآمرين على عرشه وما أكثرهم . . كل أمير من أمراء المماليك يتربص بالآخر الدوائر ، ويمكن لنفسه ويشترى الأتباع . . لقد انغمسوا فى مطاعهم الشخصية الضيقة ، لكن فى اعتقادى أن هذه الحال لن تدوم . . » .

كان الشيخ أحمد بن تيمية يستمع لحديث الرسول وهو فى حيرة من أمره ، لقد كان لنبأ رجوع الجيش المصرى إلى القاهرة وقع الصاعقة عليه وعلى أصحابه ، وسيعرف الناس ، ولا شك نبأ هذه الكارثة ، وستنهار الآمال التى بنوا عليها القصور . . والآن ما العمل؟؟ هل يستسلم ابن تيمية؟ إن الفرقة والأطماع الفردية والطائفية تكاد تجنى على الأمة . . يا للكارثة . . لا . . لن يستسلم ابن تيمية . . وكيف يلقى الله وقد تقاعس وتكاسل؟؟ .

ثم قال لمن حوله :

- «إلىّ بقرطاس وأقلام ورسول . . أسرعوا . . أسرعوا . . » .

ولم ينس الشيخ أحمد بن تيمية فى كتابة إلى الناصر سلطان مصر أن يقول فى قوة وإصرار : « . . وإن كنتم أعرضتم عن الشام وحمايته ، أقمنا له سلطانًا يحيطه ويحميه ، ويستغله فى زمن الأمن ، ولو قدر أنكم لستم حكامه ولا ملوكه ، واستنصركم أهله وجب عليكم النصر ، فكيف وأنتم حكامه وسلاطينه ، وهم رعاياكم وأنتم مسؤولون عنهم؟؟ .

لكن الموقف يزداد سوءًا . .

والقلوب مضطربة واجفة . .

والنفوس حيرى لا يقر لها قرار . .

والتتار يتسلون بالسلب والنهب، ويتلذذون بمنظر الدماء والأشلاء . .

والأزمة قد بلغت القمة من التعقيد والتشابك . .

ووسط هذا الخضم المضطرب تحاك الدسائس وتدبر المؤامرات للقضاء على ابن تيمية غيرة وحسدًا، وبعض الخونة يعاونون الأعداء ماديًا ومعنويًا، والآلام تتفاقم حتى بات الناس قاب قوسين أو أدنى من الهزيمة والموت والضياع . . هل كانت الأقدار تنتقم من أولئك العرب الذين تمادوا فى عبثهم، وانشغلوا بخلافاتهم المذهبية والسياسية؟؟ يا للعار!! إنهم مثل الأسرة الوحدة التى يتنازع أفرادها على المتاع التافه، واللصوص يحيطون بيتهم استعدادًا للانقضاض . . إن المصائب تجمع المصابين، فلِمَ لا يتيقظ العرب ليروا واقعهم الأليم؟؟ القلق والخوف، الموت . . كلها تبسط رواقها فى كل مكان .

تجمعت السحب، وتوثبت العواطف الهوج، ولم يبق إلا لحظة الانفجار وعادت الأسطورة القديمة «إن التتار لا يهزمون»، وإن كان فى الإمكان هزيمتهم فهل يكون ذلك على أيدى الدمشقيين المساكين . . هذا بعيد الاحتمال . . بل لعله مستحيل .

لكن ابن تيمية لم يهدأ، لم يكف عن الدعوة إلى الجهاد، ومراسلة ناصر الدين سلطان مصر، عله يستجيب لرجائه.

ونادى منادٍ فى أرجاء دمشق . . وأرهف الناس أسماعهم لما يقول:

- «يا أهل الشام . . يا سكان دمشق . . يا رجال العرب . . إن جيش ناصر الدين فى طريقه إلى نجدتنا من جديد . . الله أكبر . . الله أكبر . . ».

لقد استجاب ناصر الدين مرة أخرى لنداء العروبة والدين و المصلحة، وهبّ من خلفه أبناء مصر للكفاح . . أتبتسم الأقدار مرة أخرى؟؟ يا للحظ السعيد!! لك الحمد يا رب . . لقد تجدد الأمل . . هذا ما تمتم به ابن تيمية.

ولم يكد النبأ يذاع حتى عدل التتار عن هجومهم على دمشق فى عامهم ذاك، حتى يزدادوا استعداداً لوثبة أخرى لا يعلم إلا الله متى تكون، لكن هذا كان كافيًا لأن يرد إلى الناس الأمان، ويزرع فى قلوبهم الأمل من جديد . .

الأفراح تقام . . والألحان السعيدة تتجاوب فى أرجاء دمشق، والموتورون المتآمرون يؤوبون بآلامهم وأحزانهم وغيظهم ليتواروا عن المواكب الهاتفة الشادية بالنصر والسلام والأمل . .

●●●

وفى رمضان عام ٧٠٢ للهجرة ساد التوتر والقلق أرجاء دمشق من جديد، فقد عاد التتار ليقضوا على البقية الباقية من الدول الإسلامية، المعركة هذه المرة فاصلة، فالتتار مصرون على المضى إلى الأمام.. لكن جيوش مصر والشام واقفة متحفزة:

ووقف ابن تيمية وسط الجنود، وسيفه يلوح به ويقول:

- «إنكم ملاقو العدو.. والفطر أقوى لكم..».

فيرد أحدهم قائلاً:

- «كيف نفطر يا شيخنا فى رمضان؟؟».

- «إنها الحرب يا بنى.. نحن لا نبتدع.. هكذا فعل الرسول.. غداً تسيل الدماء خارج دمشق فى (شقحب).. غداً أمر عصيب».

وصاح شيخ بجواره فى ألم:

- «إن التتار عدد لا يحصى.. وخيولهم كالشياطين المسرجة..».

فزجره الشيخ أحمد بن تيمية:

- قائلاً:

- «أقسم أنكم لمنصورون..».

- «أتقسم يا ابن تيمية؟؟ لا يعلم الغيب إلا الله».

- «صدقت . . لكن الله قد وعدنا بالنصر إذا ما اتخذنا لكل شيء عدته، وزدنا يقينًا وإيمانًا واستمساكًا بمبادئنا الخالدة . . ».

كانت المعركة حامية الوطيس، وكثر القتلى والجرحى الذين غرقوا في أمواج الدماء، وابن تيمية ينادي ويحرض على الجهاد، والخونة يحاولون معاونة الأعداء . . إنها الطعنات التي توجه من الخلف . . الموقف يتأزم والحرب سجال، وإذا صوت من الميمنة ينادي :

- «الله أكبر . . إن العدو يتقهقر . . ».

صراع عنيف . . غبار مثار اختلط فيه الحابل بالنابل، ولحظات حرجة رهيبة، أترى تتحقق المعجزة من جديد، وينتصر العرب كما انتصروا منذ ثلاثين عامًا؟ وإذا بهاتف من الميسرة ينادي :

- «العدو ينحاز إلى الجبال موليًا الأدبار . . ».

فيصيح ابن تيمية :

- «لا إله إلا الله صدق وعده . . ونصر عبده وأعز جنده . . كروا خلفهم . . الحقوا بهم في الجبال والشعاب».

أيام قلائل، صفا بعدها الجو، وانجلى غبار المعركة عن نصر مؤزر للعرب، وانحدار أبدي للتتار . .

وهمس شيخ صديق فى أذن ابن تيمية :

- «لقد بلغت مناك يا ابن تيمية . . » .

- «كلا ؛ المعركة الحقيقية لم تنته بعد» .

- «يا إلهى ، ماذا تعنى . . ؟؟ يخيل إلىّ أنك ممن يقدسون المتاعب ، ويجرون وراء الآلام» .

- «إن إغماض أعيننا عن الحقائق هو الجهل بعينه . . » .

- «أفصح يا شيخنا . . » .

- «هل نسيت أن هناك من تمادوا فى خيانتهم ، وآزروا التتار؟ ، لقد انخرفوا . . والفرقة ما زالت ذيولها تسعى بين العرب . . » .

- «صدقت» .

- «إذن الحرب من جديد . . الحرب بكل أنواعها . . » .

وبين ضجة الطبول ، وأصوات الأبواق ، وأغانى النصر والحرية والفخار ومواكب التكريم والثناء ، كان ابن تيمية يمضى فى طريقه يفكر من جديد . . من أجل نصر جديد . .

●●●



رجل في المنفى

الشام كلها تتحدث عن رجل من أصحاب رسول الله، طويل ناحل العود، أسمر الجبهة، متواضع جسور، يرفع يده عاليًا يصيح بمعاوية بن أبى سفيان ومن حوله من عظماء وقواد وأغنياء، أن كفوا عن البذخ والهرج، وهاتوا فضول أموالكم وأعطوها للفقراء، ولا تكنزوا المال، أو تلجأوا إلى الاحتكار، فهو حقد وأنانية، ومدعاة لتحطيم أواصر المحبة، وفصم رباط المجتمع، وإثارة الشحناء بين الناس. .

ولا يكتفى بذلك ، بل يقضى معظم وقته فى المسجد عابدًا ضارعًا إلى الله، وليس على جسده سوى حلة واحدة بالية، يغسلها ثم يلبسها، ويظل قابعًا فى بيته فى حجرة منعزلة خافتة الضوء حتى تجف؛ وفى المسجد - كل يوم يحوطه جمع كبير من الناس، ولا يفتأ يصرخ بهم فى إصرار وعناد: «أيها الفقراء. . علمنى حبيبى رسول الله أن أقول الحق، ولو كان مرًا. . أيها الفقراء. . إن لكم حقًا فى أموال الأغنياء، أجل إنه حق وليس تفضلاً وتصدقًا منهم. . أيها الفقراء. . إن لكم حقًا فى أموال الخليفة. . وفى أموال أميركم معاوية بن أبى سفيان. . أموال الدولة هى أموالكم، ما جمعها الحكام إلا من أجل رفاهيتكم لتعيشوا حياة هانئة سعيدة. . حياة تستحقونها كبشر. . ».

ويتمتم رجلان فى آخر المسجد :

- «إن أبا ذر يطلق أحكامًا خطرة، ويثير الناس ويحرضهم على معاوية . . ».

ويرد زميله قائلاً :

- «يا له من رجل!! إنه رجل يؤمن بجماهير الناس وحقها المقدس فى الحياة . . ».

- «وما ظنك يا أخا الإسلام برجل أسلم على يدى رسول الله وعاش معه ردحًا طويلاً من الزمن، وشرب من نبعه الربانى الصافى، وكان إلى جواره فى أغلب الغزوات . . ».

فيرد صديقه :

- «صدقت يا أخى . . حقيقة! نحن نحب هذا الرجل . نحس أنه منا . . بل أقرب إلى نفوسنا من معاوية . . بل من الخليفة عثمان ابن عفان نفسه . . لكنى أشفق عليه . . ».

-« ماذا تعنى؟؟».

- «لقد أثار ضجة حول عثمان وتصرفاته فى المدينة، فنفاه إلى هنا، فأتى إلى هنا حاملاً رسالته، يحارب جشع الأغنياء، ويريد أن ينتزع حقًا من بين براثن الأمراء، ويحرضنا نحن الفقراء على أن نطلب حقنا ولو بحد السيف . . وما أظن أن الحال سوف تمضى

على هذا المنوال . . إن معاوية لن يترك الحبل على الغارب لأبى ذر الغفارى . . » .

وما أن انتهى الرجلان من حديثهما الجانبى حتى كان أبو ذر الغفارى هو الآخر يجفف عرقه، ويستجم بضع لحظات بعد الخطبة النارية التى أحرق بها أوهام أصحاب المال المكنوز، وهيج بها فى الوقت نفسه مشاعر الجماهير الفقيرة النائمة عن حقها . . وهدأت ثائرة أبى ذر قليلاً . .

وعاد إليه شىء من سكونه، وهدوء نفسه، بينما أخذ الناس ينفضون عن المسجد، وصدى كلماته القوية الشجاعة يرن فى آذانهم ويتردد فى أذهانهم، فيزيل الغشاوة عن عيونهم، ويجسم لهم حقوقهم الضائعة المهدورة . .

وانطلق أبو ذر فى أعقاب الخارجين من المسجد، عازمًا على الذهاب إلى بيته حيث تنام ابنته العليلة، وزوجته الطيبة الصامتة وعادت إلى ذهنه- وهو يضرب الأرض بقدميه النحيلتين- ذكرى فتاته البائسة، وهى ترقد على حصير بال شاحبة الوجه، غائرة العينين، وشعرها الأسود الفاحم ينسدل فوق جبينها الباهت فى براءة تثير الألم والإشفاق، ومن آن لآخر ينتابها السعال، فتظل تسعل وتسعل حتى تحتقن عيناها، وتنفرط منهما الدموع، وتمد يديها المعروقتين الهزيلتين فى ضراعة وابتهال، وتصيح فى خوف

ورعب . . أبتـاه . . وعندئذ اغـرورقت عـيناه بالدمـوع ، وفـاضت نفسه بالحزن والأسى لكنه أسرع فمسح دمعة أفلتت من بين أهدابه ، وعز عليه أنه ترك ابنته المريضة وخـرج ، لماذا لم يبق إلى جوارها؟ لكنه استـعـاذ بالله من الشيطان الرجـيم ، ومـا يـجـدى بقـاؤه إلى جـوارها؟؟ إذا أراد الله شـفـاءها فسـوف تشـفى وإذا كـان الأمر غـير ذلك فالمشيئة مشيئة الله ، إن شاء أعطى ، وإن شاء أخذ ، ولم يدر أبو ذر لماذا اقترنت فى ذهنه صورة الجشع الذى يتسم به الأغنياء ، فيملأ نفوس الناس عللاً وأحقاداً شتى . . كلها أمراض سواء ما ينخر فى جسد ابنته أو ينخر فى جسد أمته . . وفكر أبو ذر «لا شك أن ابنتى عزيزة على . . ومرضها شىء قاس مؤلم يملأنى أسى ولوعة ، وكان يجب أن أبقى إلى جوارها ، لكنى فى الوقت نفسه يجب أن أسعى إلى المسـجـد . . إلى الله وإلى من فى المسـجـد . . إلى الناس ، إنهم ينتظروننى دائمًا كى أفتح عيونهم على الحقيقة ، وأشير بأصبعى إلى حقهم فى الحياة الحرة الكريمة إنهم أبنائى هم الآخرون . . وهم أيضًا مرضى مثل ابنتى . . » .

ودلف أبو ذر إلى زقـاق ضيق ، ورأسه مزدحـمة بصورة وجـوه كـثير عـديدة تحملق فيـه ، وجـوه الذين كـانوا يكتظون بـالمسـجـد ، ووسط هذه الوجـوه الكثيـرة وجـه ابنتـه الشـاحب الهـزيل وعيناها الدامعتـان ، وعبر الزقـاق كـانت تنبعـث رائحة الحياة والناس قـوية ثائرة ، فـالزقـاق ممتلئ بـالأحـيـاء ، والأطفـال الصـغـار يجـرون هنا

وهناك حفاة الأقدام، شبه عراة، يثيرون ضجة عالية، وأصواتهم الرفيعة تشبه إلى حد كبير مواء القطط وهى تعبث وتتشاكس، والبيوت واطئة متلاصقة متكدسة، وعلى الأبواب وفى الحظائر القريبة أناخت الإبل وبعض الأغنام والماعز، أين ذلك كله من قصور العظماء التى تشمخ خارج المدينة فى الهواء الطلق المنعش، تحوطها الحدائق الغناء، والبساتين التى يفوح شذاها عبقرى الأريج، حلو النسمات، يعمرها أقوام يأكلون كثيرًا ويشربون كثيرًا، وورثوا نعيم الرومان ومراتعهم، وتشبهوا بمجدهم وأبهتهم، واستناموا لدفء الحياة وجمالها وانبساطها؟

وبلغ أبو ذر بيته القمىء كان السكون يوشحه بوشاح ضاف، والليل يضمه إلى صدره فى حنان وألم، ونقر على الباب نقرات خفيفة، فسمع صوت زوجته ينبعث كسيرًا حزينًا: «ادخل»، فدفع الباب دفعة رقيقة، ثم دلف إلى الداخل، وانبعث من كوة فى الحائط المقابل ضوء واهن من مصباح زيتى مرتجف اللهب، الصالة ليست فسيحة، لا يفرشها إلا الحصى، وإلى بعيد إناء به ماء يبلل ما حوله من حصى، وشاة عجفاء تمضغ الصمت والفراغ والليل الطويل ليس فى فمها شىء، اقتناها ليشرب منها اللبن، وبلغ الحجرة التى تنام فيها ابنته المريضة . .

كانت امرأته كابية حزينة، قد جلست القرفصاء، مسندة ذقنها إلى قبضة يمناها المرتكزة فوق ركبتها، وعيناها الساهرتان

المحاطتان بهالة زرقاء تتركزان على وجه ابنتها الشاحب المغمض العينين :

- «هل جاء أبى؟» .

قالتها الفتاة المريضة ، وهى تحاول جاهدة أن تفتح عينها ، بينما قال أبوها فى نبرة حنان صادق :

- «أجل . . جئت يا حبيبتى . . » .

- «أهكذا تتركنى يا أبى؟؟ لقد كنت أبكى من أجلك . . » .

- «أنا ما تركتك يا حبيبتى . . كنت فى بالى دائمًا . . أردت أن أؤدى الصلاة ، وأسمع المصلين الدرس اليوم ، ثم لأدعو لك الله كى يمن عليك بالشفاء . . لا تجهدى نفسك بالكلام والبكاء يا ابنتى حتى لا تنتابك موجة السعال . . » .

- «آه . . يا أبى أحس أنى أموت . . أنا لا أخاف الموت يا أبتى . . فحبيبك محمد عليه الصلاة والسلام قد مات كما حدثتنى أنت فى الليالى الطوال . . لكنه يعز على فراقك . . وفراق أمى . . » .

وأجهشت الأم بالبكاء ، بينما كظم أبو ذر أساه متجلدًا وإن تبللت عيناه بالدموع ، وأمسك بيد زوجته :

- «ماذا أصابك يا امرأة؟» .

وجمدت الدموع فى العيون ، حينما توالت دقات قوية متلاحقة على باب البيت ، وصاح أبو ذر وهو يغادر الحجرة :

-«مَنْ بالباب؟» .

- «أنا رسول أمير المسلمين معاوية بن أبى سفيان . . الأمير يدعوك لأمر عاجل . . » .

●●●

كان معاوية يجلس مفكرًا ساهمًا ، يرن فى أذنيه ذلك الضجيج والضوضاء التى جلبهما عليه أبو ذر ، الشام بقراه ومدائنه يتحدث عن الصحابى الجليل الذى يتحدى الأغنياء ، ويحرض الفقراء ، الجميع يتحدثون عن الرجل الذى يدعو إلى ثورة فى الأخلاق والقيم ، وثورة فى تنظيم المال وتوزيعه ، ويعيش - كما كان أيام الرسول - زاهدا حرًا يقول كلمة الحق ويفنى فى سبيلها ، لا تطويه ظروف العصر ، ولا مقتضيات الشام وأساليب حكمها . . لكن معاوية يريد شيئًا غير ذلك ، أن يدين الناس له بالولاء ، ولا يرفعوا فى وجهه راية العصيان ، أو يعترضوا على نظامه المالى والسياسى ، لا يرى مانعًا أن يثرى الأثرياء ، ويتضخم الثراء ، ويستمتع الناس بما لذ وطاب من طعام وملبس ومباهج دنيوية ، والفقر فى نظره ظاهرة طبيعية توجد فى كل عصر ومجتمع . . والناس دائمًا أغنياء وفقراء ، واحد من اثنين هذا أو ذاك ، أما أبو ذر فلا يرى ذلك ، إنه

يؤمن بأن يتقشف الأغنياء، وينزلوا عن شيء من أموالهم - رغبة أو رهبة- لغيرهم من خلق الله الذين لم ينالوا حظًا من سعة، فيصير الفقر المدقع بعض سعة، ويصير الغنى الفاحش، ثراء معقولاً . .
وأدرك معاوية - أو خيل إليه - أن مبادئ أبى ذر وأفكاره قد تؤدى إلى هزات عنيفة تصب ملكه بالعطب، وتصيب المجتمع بالخلل والفوضى، وعول على أن يأخذ أبا ذر بالشدة والعنف، لعله يترك الأمر للحاكمين، ويكف عن إثارة القلاقل، وتحريض جماهير الناس، لكن كيف تمتد يده إلى رجل صحابى، عالى المركز، ذائع الصيت، اصطفاه الرسول وقربه إليه وأثنى عليه، ووعده بالجنة، ناهيك بما يكنه له الناس من توقير واحترام يعلو على احترامهم لمعاوية، وتوقيرهم له؟ ومن ثم فلن يكن هناك من طريق سوى الرقة واللين والتفاهم . .

أما أبو ذر فقد غذ السير صوب دار معاوية، بعد أن تخلص بلباقة من ابنته التى كانت تتشبث بأذيال ثوبه، وتضرع فى مرارة: «لماذا تتركنى يا أبتاه؟؟ أتذهب إلى الأمير وتترك ابنتك التى تتلوى وتوشك أن تموت»؟؟ إن طاعة الأمير واجب، ومن يدرى؟ ربما طلبه معاوية ليستشره فى شأن من شؤون الأحكام، فكيف يتراخى أبو ذر عن دعوة الأمير أو يتكاسل عن خدمته من أجل المسلمين، إنه بالأمس جندى من جنود الرسول ثم أبى بكر ثم عمر واليوم هو . . جندى

مكافح من أجل أمته الكبرى ، وجماهيرها الغفيرة التى أصبحت تملأ السهل والجبل، وتمتد من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب، وتشرق وتغرب إلى مسافات شاسعة، وتؤمن بالله ونبيه والحق الأبلج الذى غمر الدنيا بالنور والحياة والخير.

لكنه فى الوقت نفسه لم يستطع أن يبعد عن ذهنه صورة الوجه الشاحب المرتخى الجفون، واليد الواهنة المعروقة التى تمتد إليه فى ضراعة، وتتشبث بأذيال ثوبه، ودخل إلى معاوية وأصابع الألم الخفية تتحسس قلبه الحزين، ونفسه مرتع لكثير من المتناقضات التى يحاول جاهدًا أن يصرفها أو ينحيها بعيدًا، وهو يتمتم بآيات من القرآن، وببعض الأدعية التى حفظها عن صاحبه وحبيبه محمد ﷺ.

وقام معاوية إليه يحييه، ويظهر له من ضروب التكريم والتحية ما لم يكن يخطر له على بال، ذهل أبو ذر وهو يرى الرجل الذى يعارض سياسته، ويحمل على تصرفاته، يقابله هذه المقابلة الودية، ويبالغ له فى الترحيب، حتى إن أبا ذر لعن بينه وبين نفسه من سلوكه وتحريض الناس عليه، وأفسح له معاوية مكانًا إلى جواره، ورق له فى الحديث، وسأله عن حاله، وتشعب بهما الحديث إلى الماضى، إلى الذكريات الحلوة النابضة بمعانى الحب والنضال والآمال الكبار حتى إذا أنست نفساهما، وسقطت

بينهما الكلفة، صفق معاوية بيديه، فأقبل الخدم يلبون النداء ويقدمون فروض الطاعة والولاء، وما هى إلا لحظات حتى وجد أبو ذر أمامه خوانًا ممدوًا عليه ما لذ وطاب من الطعام والشراب، ورائحة الطعام والشواء يتحلب لها الفم، ومنظرها المغرى يحرض على الرغبة فى الأكل، ويثير إحساسًا بالجوع، كان منظر الخوان شيئًا جديدًا على أبى ذر الزاهد المتقشف لم ير مثله طوال حياته، ودار بعينه متفحصًا ما حوله بنظرات ذاهلة. . أرائك فخمة ثمينة ذات ألوان. . وستائر حريرية تهتز هزات خفيفة مع النسيم الهادئ. . وخوان طويل عليه ألوان من الطعام. . وعلى الفور وثب إلى ذهنه صورة القصعة والماء و الثريد ولبن الشاة العجفاء. . وقليل من التمر فى مخلاة. .

وآلاف الفقراء يمضغون لقيمات جافة كى تقيم وتعينهم على مشاق الحياة. . ثم الفتاة الناحلة الشاحبة ذات اليد المعروقة التى تنام على حصير مهرأة. . ونوبات السعال ترعش جسدها الضامر وتهز عودها النحيف هزًا عنيفًا لا رحمة فيه ولا هوادة، وهمت أن تنفرط من عينيه الدموع، لكنه - كعادته-لم يسمح لها أن تنهمر. . كان قويًا عند الشدة صامدًا إذا ما هبت النكباء. . شامخًا جبارًا أمام التحريض والإغراء. . ساخرًا زاهدًا إذا ما لوحت له الدنيا بالمادة المادة. . الفانية التى لا تعرف الخلود.

وأدرك معاوية ما يعانيه أبو من ذر من شرود واضطراب وتفكير ، وابتسم معاوية وقال فى رقة دون أن يدرى تمامًا ماذا يعتمل فى داخل رأس ضيفه :

- تفضل . . الطعم جاهز . .

وامتلات نفس أبى ذر حنقًا ، ماذا يريد معاوية بذلك؟؟ أهو مجرد الواجب الذى يؤديه المضيف لضيفه ، أم هو تقدير لشخصى فى صورة ذلك الطعام الدسم الشهى ، أم رشوة ، يريد أن يسد بها فمى ، ويلوح لى بالنعيم المقبل إذا أنا امتقلت لأوامر وكففت عن مهاجمة نظامه المالى الفاسد ، وسوء توزيعه الثروة بين جماهير الأمة؟؟؟ .

وكظم أبو ذر غيظه ، وكبت انفعالاته التى تريد أن تنطلق فى تمرد وثورة ، وقال فى نبرات مرتعشة يحاول جاهدًا أن يجعلها طبيعية لا أثر للانفعال أو التوتر فيها :

- «أكلت وحمدت الله . . وما بى جوع ولا ظمأ الآن . . » .

- «لكن هذا الطعام من أجلك يا أبا ذر ، وليس من اللائق أن ترد ضيافة أمير المؤمنين وتخاصم طعامه . . » .

- «ربما تكون محقًا فيما تقول ، لكنى أوقن أن آلافًا غيرى فى حاجة إلى كسرة خبز تسد جوعتهم . . أحس وأنا آكل هذا الطعام كأنى أسرقه منهم . . » .

وتغـيـرت سـحنة مـعـاوية، وبان فى عـينيـه شىء من العـتـاب والضيق، لكنه أردف قائلاً:

- «ماذا تقصد يا أبا ذر؟؟».

فرد عليه فى لهجة صريحة واضحة:

- «طعامى كل جمعة صاع من الشعير على عهد رسول الله ﷺ، والله لا أزيد عليه شيئًا حتى ألقاه..».

- «لكن يا أبا ذر أنت تعلم أن الله لَمْ يحرم علينا الطيبات من الرزق..».

وفكر أبو ذر فيما قاله معاوية، إنه حق لا شك، لكن التفاوت الشنيع بين أقوام لا يجدون شيئًا، وأقوام يجدون كل شىء من مأكل وملبس ومشرب.. إنه أمر مزعج لا شك، فيه كثير من أنانية، وفيه ظلم صارخ لا شك فيه، وقال أبو ذر:

- «لقد تغيرتم كثيراً يا معاوية.. تنخلون الشعير.. وتخبزون المرقق، وتجمعون إدامين.. واختلف عليكم بألوان الطعام.. وغدا أحدكم فى ثوب وراح فى ثوب آخر، ولم تكونوا هكذا فى عهد رسول الله..».

فقال معاوية وقد نفذ صبره:

- «لقـد انقـضى ذلك العـهـد يا أبا ذر، ونحن هنا فى بلد الأعاجم، فإن لم نظهر أمامهم بالمظهر اللائق استخفوا بنا. .».

فابتسم أبو ذر فى مرارة، وقال:

- «هذه مظاهر جوفاء، ورأى لا أرتأيه. . انظر كيف فتحنا هذه الديار، وملكنا دنيا القياصرة والأكاسرة. . لم نصل إلى ذلك بالمظاهر التى تتحدث عنها من حيث الطعام والشراب، وإنما أتينا إليهم جياعًا. . فقراء. . نلبس المتواضع من الثياب، ونتبلغ بثمرات أو لقيمات. . نحمل فى كفة كتاب الله وسنة رسوله، وفى الكفة الأخرى سيفًا، نحطم به عروش الظالمين، ونعيد إلى الأمم المهضومة المظلومة حقها فى الحياة الحرة الشريفة. . وفى لقمة العيش. . وحرية العقيدة. . لقد حولنا البشرية الضالة إلى آدميين شرفاء كرماء. .».

الطعام لم يزل متراصًا على الخوان، ورائحته النفاذة قد نامت أو كادت، وألوانه الزاهية الجذابة قد انطفأت، وخيل إليهما أن أمامهما ليس طعامًا وإنما سمًا زعافًا، وقطع معاوية الصمت حينما قال:

- «يا أبا ذر. . لم تزل كلمة الله هى العليا وكلمة الذين كفروا السفلى، والرسول - ذلك الإشعاع الربانى المضىء - سوف يبقى دائمًا الهادى إلى طريق الحق والنور والمعرفة. . هذه حقيقة يجب أن أؤكدها، لكن لكل منا فهمه الخاص، ونظرته الخاصة إلى

الأمور . . غير الذى يزعجنا حقيقة يا أبا ذر هو أنك تؤلب الفقراء، حتى ضج الأغنياء . . وشكوا أمرك إلينا؛ لأنك تهدد مصالحهم بالبوار والخراب . . ».

فسارع أبو ذر قائلاً :

- «إنى أنهاهم عن الكنز . . ».

- «ولمه؟؟».

- «لقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [التوبة : ٣٤] فإنى أبشرهم بعذاب أليم . . ».

- «إن هذه الآية نزلت فى أهل الكتاب . . ».

- «بل نزلت فينا وفيهم . . ».

فقال معاوية فى شدة وصرامة :

- «إنى آمرك أن تكف . . ».

فرد أبو ذر وهو أشد ما يكون صرامة وعنفًا :

- «والله لأستمرن على دعوة الناس إلى الزهد . . وعلى تحذيرهم من الكنز . . ولأبشرن الكانزين بعذاب النار . . ».

فعاد معاوية إلى الرقة واللطف قائلاً :

- «خير لك أن تنتهى عما أنت فيه . . » .

- «والله لا أنتهى حتى توزّع الأموال على الناس كافة» .

فقال معاوية مهددًا :

«يا أبا ذر . . هذا فراق بينى وبينك ، فحاذر» .

- فقال أبو ذر وهو يهم بالوقوف :

-﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾ [التوبة : ٥١] يزعم قوة ويقولون :

«إن المال مالنا . . والفيء فيئنا ، فمن شئنا أعطيناه ومن شئنا منعناه» .

كلا . . إنما المال مالنا والفيء فيئنا ، فمن حال بيننا وبينه حاكمناه إلى الله بسيوفنا .

كلما قوية رنانة ، اهتزت لها جنبات المكان ، وزلزلت أمن معاوية ، حتى خيل إليه أن هذه الصيحات القوية إذا ما خرجت من أروقة قصره إلى الشارع ، وتلقفتها أسماع الناس ، وترددت على ألسنتهم ، فسوف تندلع ثورة . . الجياع والفقراء الذين يؤمنون أن لهم حقًا عند معاوية ، وعند الأغنياء وإذا لم يعد لهم هذا الحق حاكموها إلى الله بسيوفهم . . والسيف حكم خطر رهيب ، لا تؤمن معه العاقبة ، ولا تحمد النتائج .

ونادى معاوية الخدم :

- «ارفعوا هذا الخوان ما بى رغبة فى طعام . . » .

كان معاوية لا ينكر بينه وبين نفسه- أن أبا ذر رجل طاهر الذيل ، نقى السريرة ، أبيض الصفحة ، لكن وسيلته جافة مزعجة . . يقول الكلمة على ملأ من الناس . . ويحلم بمثاليات مغرقة فى الخيال ، لا يمكن تحقيقها على نحو ما يرى ، ولا بالسرعة التى يتمناها ، وأبو ذر يريد أن يفرض زهده الفردى ، ومثالياته الحالمة على عامة الناس . . فى مجتمع يريد أن يبنى كل فرد فيه مجده ، وينال أقصى ما يستطيع من نجاح بالطرق المشروعة إنها معركة كبرى لا تقل ضخامة عن المعركة التى قادها محمد ﷺ ضد قوى الجاهلية والشرك والتقاليد الخاطئة المتأصلة فى المجتمعات التى أعاد الإسلام بناءها . . ومعاوية لا يرى هذا الرأى ولا يقره . . فكيف تستقيم الأحوال وسط هذا الصراع ، وتنتظم الأمور فى ذلك الجو المشحون بالتحريض والثورة والقلق .

وأحضر معاوية دواة وقرطاسًا وقلمًا ، وجلس يسطر لأمير المؤمنين عثمان بن عفان رسالة موجزة أودعها كل ما يريد أن يقول :

- «أما بعد . . فإن أبا ذر تجتمع إليه الجموع إليه . . وقد ضيق علىّ . . وأعضل بى . . ولا آمن أن يفسد عليك . . فإن كان لك فى القوم حاجة فاحمله . . » .

لن يكون الأمر سهلاً ، فعثمان قد نفى أبا ذر من قبل إلى الشام ،

وها هو معاوية حاكم الشام يضيق به ذرعًا ويريد أن يعود أبو ذر من حيث أتى، فهل يستدعيه عثمان مرة أخرى، ويتصدى هو لصيحات أبى ذر من أجل الفقراء، ويتلقى هجماته ويتحمل مضايقاته.. حتى يدع الشام ومعاوية فى دعة وسلام، قبل أن تنبت بذور الثورة والتمرد ضد معاوية؟؟.

●●●

أما أبو ذر فقد خرج من مسكن معاوية، وآثار الثورة التى اجتاحت كيانه، تلهب فؤاده، وترعش جسده وخطواته المسرعة التى تطأ الصمت والظلام اللذين يغرقان المدينة النائمة.

وبلغ أبو ذر الزقاق الذين ينزوى فيه بيته، وخفق قلبه خفقات سريعة متلاحقة وهو يدنو من الباب، ودلف إلى باحة البيت الصغير، وقصد من فوره إلى الحجرة الضيقة التى ترقد فيها ابنته العليلة، ووقع بصره عليها ترقد ساكنة لا حركة ولا نفس، وقابلته أمها بالشهقات والدموع من بين شهقاتها ودموعها انبعث صوتها الواله الحزين:

- «ماتت.. ماتت..».

كانت الفتاة مسجاة، وكلب يعوى من بعيد عواء كالأنين، والشاة العجفاء تمضغ السكون والليل. لا شىء فى فمها،

وضوضاء صاخبة فى رأس أبى ذر الدامع، وشىء غامض يقطع فى قلبه.. فى روحه الشفافة بسكين لا تبين، وهمّ أن يتكلم لكنه لم يستطع فقد غص صوته بالدمع.. الفتاة مسجاة.. وحزن عميق يلف الدار الكابية.. وتمتم أبو ذر أخيراً.. ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦].. صدق رسول الله.. إنما يولدون للموت، ويعمرون للخراب.

ونامت العيون وبقيت عين أبى ذر وزوجته يذرفان الدموع وأيديهما ترتفعان إلى السماء فى ضراعة وابتهال.

●●●

ولم يكد يمر وقت طويل حتى جاء رد عثمان بن عفان على رسالة معاوية، وفيها: «.. جهّز أبا ذر إلىّ، وابعث معه دليلاً، وزوده وارفق به، وكفكف الناس ونفسك ما استطعت..».

وفى قافلة صغيرة، تنحدر نحو الجنوب، كان أبو ذر فى طريقه إلى المدينة ليبدأ جولة جديدة، وفى ذهنه كلمة الرسول عليه السلام له ذات يوم: «يا أبا ذر.. إنك رجل صالح، وسيصيبك بلاء بعدى».. فيسأله أبو ذر: «أفى الله يا رسول الله؟؟» فيجيبه الرسول:

- «فى الله..».

فيرد أبو : «إذن مرحبًا بأمر الله . . » .

وكانت هذه الذكريات الحلوة مع الرسول بردًا وسلامًا على قلبه ، وزادًا أى فى رحلته القاسية إلى المدينة ، وصراعه الرهيب الخالد ضد الفقر والجشع ومأساة الإنسان . .

تمت

●●●

الفهرس

الموضوع **الصفحة**

•• كتب للمؤلف

الطريق الطويل: الرواية الفائزة بجائزة وزارة التربية والتعليم عام ١٩٥٧م.

(نشرتها وزارة الثقافة والإرشاد - طبعة ثالثة).

فى الظلام: جائزة وزارة التربية والتعليم عام ١٩٥٨م.

اليوم الموعود: جائزة المجلس الأعلى لرعاية الآداب والفنون (طبعة ثانية).

عذراء القرية: رواية مصرية.

طلائع الفجر: تكملة قصة «فى سبيل الحرية» التى بدأها الرئيس جمال عبد الناصر.

ليل الخطايا: رواية مصرية.

راس الشيطان: رواية مصرية.

الربيع العاصف: رواية مصرية.

موعدنا غداً: قصص قصيرة- الجائزة الأولى فى مسابقة نادى القصة سنة ١٩٥٩م، الميدالية الذهبية المهداة من الدكتور طه حسين.

دموع الأمير: قصص إسلامى تاريخى.

على أسوار دمشق: مسرحية تاريخية من خمسة فصول.

إقبال الشاعر الثائر: جائزة وزراة التربية والتعليم عام ١٩٥٧م.

شوقى فى ركب الخالدين: جائزة وزارة التربية والتعليم عام ١٩٥٨م.

المجتمع المريض: جائزة وزارة التربية والتعليم عام ١٩٥٨م.

ارض الأشواق: (رواية فلسفية).

نحو العلا:

اغانى الغرباء: ⟩ شعر